أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة

تأليف بيتر بينارت

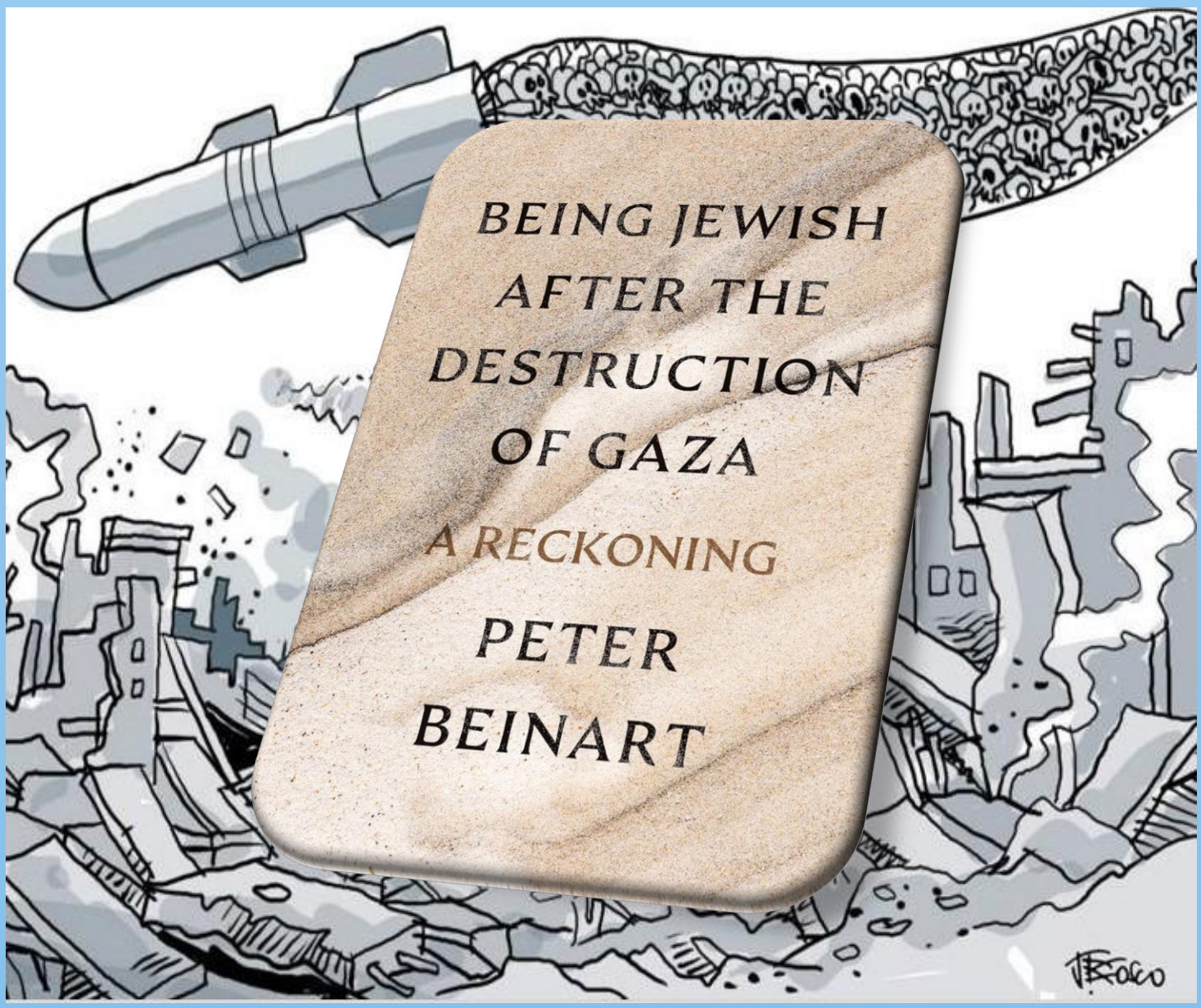

ترجمة وبحث خالد غنام

استراليا-2025م

مركز الانطلاقة للدراسات
ALENTILAQAH RESEARCH CENTER (A.R.C)

أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة

تأليف بيتر بينارت

مدخل بقلم خالد غنام

بشاعة الحروب تنبت في العقل أزهار أسطورية لها ألوان جديدة ورائحة مبتكرة، فيها يرسم الحالمين شكل السلام القادم عندما يقتنع المتحاربين أن السلام حقيقة ومهما طالت أمد الحروب فإن فجر السلام قادم، حينها فقط نستطيع أن نبكي قتلى فقدناهم في الحرب، أما الآن فمازلنا نبكي جوع المحاصرين، ونصرخ على غضب الرصاص الذي يقتلنا دون تمييز.

من قراءاتي الكثيرة للأستاذ المبدع بيتر بينارت تعلم منه أن الفكر السياسي لم يعد علماً له نظريات بعدما تحولت السياسة الدولية إلى صراع بين شركات عالمية تبحث عن أسواق وموارد لا حكومات دول عظمى تبحث عن نفوذ وسيطرة.

من جانب آخر، كتب بيتر بينارت مقالات كثيرة عن سوء استخدام النص الديني، وأن هذه الجريمة التي يرتكبها السياسيون مدمرة بحق الشعوب التي بتجل النصوص الدينية وتعتبرها مقدسة بالنسبة لهم، بينما يعتبر الغالبية العظمى من المتدينين أن رجال السياسة منافقين يكذبون للحصول على أصوات الناخبين ثم لا يفون بوعودهم الانتخابية.

إن قراءة مسيرة بيتر بينارت تجعلنا ندرس الأثر السلبي للصهيونية الدينية على الجاليات اليهودية في الدول الغربية؛ حيث أن فتاوي الحاخامات تحث كل يهود الدول الغربية على الهجرة إلى إسرائيل والمشاركة بالخدمة العسكرية في جيشها، ومن لا يفعل ذلك فإن يهوديته ناقصه، وأنه لا ينتمي إلى قبيلة بني إسرائيل. فجاءت احتجاجاته متعددة الأوجة تدعو يهود الدول الغربية في المساهمة في إقامة السلام عن طريق حل الدولتين، وذهب عدة مرات للضفة الغربية وتظاهر ضد الاستيطان وقمع الفلسطينيين.

في هذا الكتاب نلمس إحباط شديد عند بيتر بينارت فهو لم يعد يؤمن أن دولة إسرائيل قادرة عن التخلص من عبئ الصهيونية الدينية المتطرفة، وأنه يخشى على الدين اليهودي من فتاوي الحاخامات المتشددة التي حولت اليهود إلى أمة مكروه في كل الدول الغربية بسبب ترويجها لفكرة شعب الله المختار ونظرية التفوق الديني والقومي اليهودي على المسيحية الغربية.

كما أنه يرفض تصنيف المقاومة الفلسطينية بالإرهاب؛ لإنها رد فعل طبيعي على السياسات التعسفية الإسرائيلية، وأن جنوح الشباب الفلسطيني للعنف لم يكن بسبب سيطرة حركة حماس على قطاع غزة، وخير شاهد على ذلك انتفاضة الأقصى وأحداث هبة الأقصى (انتحاري السكاكين)، وغيرها الكثير من ردات الفعل الطبيعية بشعب يعيش تحت الاحتلال.

وأهم استنتاجاته أن الفلسطينيين لا يمكن أن يكونوا متعاونيين مع الإسرائيليين أكثر من فترة حكم سلام فياض، وعلى الرغم من كل ما قدمه الفلسطينيين إلا أن سياسات الاحتلال التعسفية استمرت وتوسع الاستيطان بشكل جنوني، وكذلك تم تشديد حصار قطاع غزة.

في ظل نظرة بيتر بينارت التحليلية فإن النخبة الحاكمة في الأطر السياسية والدينية في إسرائيل غير قادرة على استيعاب أن الفلسطينيين شعب له حقوق عليهم أن يعيدوها لهم، وإلا فإن موجات العنف ضد الإسرائيليين ستستمر.

من جانب آخر، فهو يعطي المقاومة الفلسطينية مجموعة هامة من النصائح أهمها عدم استهداف المدنيين الإسرائيليين، وأن قتلهم سيبرر الإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطيني، فآلة الدعاية الصهيونية التي روجت للهولوكست بعد تضخيمها آلاف المرات، قادرة على قلب الرأي العام العالمي ضد الفلسطينيين إذا ما امتلكت الحجج الكافية.

إن استخدام الخطاب الديني المقدس في السياسة لا يعني أننا في حرب مقدسة، بل على العكس من ذلك، أي أن السياسيين لا يملكون الحجج السياسية الكافية لإقناع شعوبهم لذا يلجؤون إلى رجال دين مأجورين يقومون بتحويل قراراتهم السياسية إلى فتاوى دينية ملزمة لكافة المؤمنيين، وهذا النوع من الفتاوي الرخيصة تسبب بارتفاع نسبة الإلحاد في العالم.

من هنا جاء استنتاجه بضرورة إنهاء المشروع الصهيوني وإقامة دولة فلسطينية واحدة، تكون ديموقراطية يعيش فيها المسلمين والمسيحيين واليهود بتسامح ومساواة. وذكر أهمية الفكرة التي طرحتها حركة فتح عام 1970 (أتوقع أنها كانت عام 1969)، حيث بين أن حركة فتح كانت قادرة على بلورة فكرة سياسية مخالفة لجنون المعارك في تلك الفترة من حرب الاستنزاف بعد حرب النكسة عام 1967.

في النهاية لابد أن أنوه إلى نقطتين هامتين:-

1- لقد تم حذف الهوامش والحواشي الأصلية بسبب طولها الذي يصل إلى 50 صفحة، كما أنها غير محددة بالنسخة الورقية بل هي مكتوبة بصيغة نص الالكتروني تفاعلي ترابطي.
2- اخترت ثلاثة قراءات نقدية أعتبرها هام وتحتوي على رؤيا تساعد القارئ بفهم مقاصد الكاتب. فهي هامة من ناحية أنها من مدارس فكرية متنوعة، ولم أكتب قراءة نقدية كاملة للكتاب بسبب أن القراءات النقدية التي أرفقتها تشابه لحد كبير الأفكار التي كنت أود طرحها.

الفهرس

مدخل بقلم خالد غنام..... 2
قراءات نقدية للكتاب..... 5
تعليق موقع بينغوين الكتاب الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز 5
عرض كتاب "أن تكون يهوديًا بعد دمار غزة".. كتاب لـ "بينارت" يوضح الأزمة الأخلاقية لإسرائيل بقلم الأستاذة يارا خالد – مركز ترو للدراسات/ القاهرة..... 5
قراءة نقدية أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة - ديفيد ن. مايرز 9
نبذة عن المؤلف..... 14
نص الكتاب 17
رسالة إلى صديقي السابق..... 17
مقدمة: نحتاج إلى قصة جديدة 19
حاولوا قتلنا، نجونا، هيا نأكل 21
لمن يُصيب..... 33
طرقٌ لعدم الرؤية..... 45
معاداة السامية الجديدة 56
أبناء قورح 70

قراءات نقدية للكتاب

تعليق موقع بينغوين الكتاب الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز[i]

هو نداء جريء وعاجل من الكاتب والمعلق السياسي المرموق، يتناول إحدى أهم قضايا عصرنا

يرى بيتر بينارت أن قصة واحدة تهيمن على الحياة الجماعية اليهودية: قصة الاضطهاد والتضحية. إنها قصة تمحو الكثير من دلالات التقاليد الدينية اليهودية، وتشوه فهمنا لإسرائيل وفلسطين. بعد غزة، حيث استُخدمت النصوص والتاريخ واللغة اليهودية لتبرير المجازر الجماعية والتجويع، يرى بينارت أن على اليهود أن يرووا قصة جديدة. بعد هذه الحرب، التي سيتردد صداها لأجيال، عليهم أن يقدموا إجابة جديدة على السؤال: ما معنى أن تكون يهوديًا؟

يتخيل بينارت سردية بديلة، تستند إلى جهود الدول الأخرى في إعادة بناء القيم الأخلاقية، وقراءة مختلفة للتقاليد اليهودية. قصة يكون فيها لليهود الإسرائيليين الحق في المساواة، لا في السيادة، وحيث لا يتعارض الأمان اليهودي والفلسطيني، بل يتشابكان. قصة تُدرك خطر تبجيل الدول على حساب حياة البشر.

كتاب "أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة" حجة استفزازية ستُوسّع وتُثري أحد أهمّ نقاشات عصرنا. إنه كتابٌ لا يُجيد كتابته إلا بيتر بينارت: عملٌ عاطفيّ ومتوازن يجمع بين تجربته الشخصية، وفهمه العميق للتاريخ، وفهمه العميق للمعضلات السياسية والأخلاقية، ورؤيته الواضحة للمستقبل.

كتب آدم هوشيلد، مؤلف روايتي "منتصف الليل الأمريكي" و"شبح الملك ليوبولد":

"في هذه اللحظة المؤلمة، يكتسب صوت بيتر بينارت أهمية أكبر من أي وقت مضى. فنطاقه واسع - من مأساة الشرق الأوسط اليوم إلى جنوب أفريقيا التي يعرفها جيدًا إلى أحداث وقعت قبل قرون - ومعرفته عميقة، وقلبه كبير. لا يقتصر هذا الكتاب على الحديث عن كونك يهوديًا في ظل حرب اليوم، بل يتناول أيضًا كونك شخصًا حريصًا على العدالة."

عرض كتاب "أن تكون يهوديًا بعد دمار غزة".. كتاب لـ "بينارت" يوضح الأزمة الأخلاقية لإسرائيل بقلم الأستاذة يارا خالد – مركز ترو للدراسات/ القاهرة[ii]

ستعرض كتاب "أن تكون يهوديًا بعد دمار غزة "Being Jewish After the Destruction of Gaza: A Reckoning" للكاتب بيتر بينارت، والصادر في طبعته الأولى عام 2025 عن دار النشر الأمريكية الشهيرة Alfred A. Knopf ، الأزمة الأخلاقية لإسرائيل في حربها الشرسة الأخيرة ضد قطاع غزة وقتلها آلاف من المدنيين العُزل.

بينارت هو مفكر وصحفي أمريكي من أصل يهودي، ويُعد من أبرز الأصوات الليبرالية المناهضة للصهيونية في الوسط الأكاديمي والإعلامي الأمريكي. وُلد عام 1971، ودرس في جامعة ييل ثم أكمل دراساته العليا في أكسفورد. كتب في أكبر الصحف مثل The Atlantic وThe New York Times، ويعمل أستاذًا في الصحافة والعلوم السياسية بجامعة نيويورك.

كان بينارت في بداياته داعمًا قويًا لإسرائيل، لكنه منذ حرب غزة الأخيرة، بدأ في مراجعة مواقفه جذريًا، إلى أن تحول إلى أبرز المفكرين اليهود الأمريكيين الداعين لفك الارتباط بين الهوية اليهودية والدولة الإسرائيلية. وينتقل بينارت في هذا الكتاب من دور المثقف الناقد إلى المفكر الذي يطرح تصوّرًا فكريًا وأخلاقيًا بديلًا للهوية اليهودية في أعقاب المجازر الإسرائيلية في غزة.

اختطاف اليهودية: يمكن فهم هذا الكتاب على أنه يمثل لحظة "ما بعد صهيونية" داخل الفكر اليهودي الأمريكي. وقد تجاوز بينارت عتبة الخطاب الليبرالي المؤيد لحل الدولتين، وذهب إلى تفكيك الجذر اللاهوتي والسياسي لفكرة الدولة اليهودية ذاتها. فهو يرى أن تعريف الدولة على أساس ديني-إثني هو إلغاء ضمني للمساواة، وتمهيد دائم للعنف.

ولعل أكثر ما يلفت في هذا الكتاب هو أن الكاتب لا يستند في أطروحته إلى سرديات فلسطينية أو عربية، بل إلى نصوص التوراة، والتلمود، والتراث الأخلاقي اليهودي ذاته. حيث يحاكم الصهيونية بلغة الدين اليهودي، ويُدينها من منطق الانتماء لها، لا من موقع الخصومة معها.

ومن جهة أخرى، فإن هذا النص يأتي في لحظة حرجة من تحول المزاج العالمي تجاه إسرائيل، خاصة بعد مجازر غزة، وتنامي حركات المقاطعة BDS ، وانكشاف الخطاب الإسرائيلي أمام منظمات حقوق الإنسان الدولية. في هذه اللحظة، يُقدم بينارت فكرًا تأسيسيًا يمكن أن يُسهم في بناء تيار يهودي عالمي يعارض الاحتلال، ويطالب بعدالة حقيقية لجميع سكان الأرض الممتدة من النهر إلى البحر.

وعلاوة على ذلك، يمثل الكتاب تحديًا سياسيًا كبيرًا للأنظمة الغربية المتحالفة مع إسرائيل، خصوصًا في أوروبا وأمريكا. فهو يدعو، من قلب المؤسسة الأمريكية، إلى التحرر من الشراكة غير المشروطة مع الاحتلال، وإلى مراجعة التحالف الأخلاقي، وأُعيد تصديره كشرعية دائمة للعنف الإسرائيلي.

كما يعيد تسليط الضوء على مسؤولية المثقفين واليهود الليبراليين في الغرب الذين اختاروا الصمت خوفًا من تهمة الخيانة، أو حبًا بالمؤسسة، أو قناعة بأن الدفاع عن إسرائيل هو آخر حصون الهوية.

إن "Being Jewish After the Destruction of Gaza" ليس فقط وثيقة فكرية، بل إعلان تمرد فلسفي وأخلاقي ضد ما يسميه الكاتب باختطاف اليهودية من قبل الدولة. إنه كتاب يعيد تعريف الانتماء، ويؤسس لنقاش جوهري لا يمكن إغلاقه بعد الآن يدور حول

سؤال: هل يمكن أن تكون يهوديًا وتدافع عن نظام فصل عنصري؟.. هل يمكنك أن تعيش في ضوء الذاكرة، بينما تُطفئ ضوء الضمير؟.

بهذه الأسئلة الجذرية، يكون بيتر بينارت قد تجاوز حدود النقد السياسي، ودخل إلى ميدان تأسيس أخلاقي جديد قد يغير مستقبل العلاقة بين اليهودية، وإسرائيل، وفلسطين، والعالم.

الأزمة الأخلاقية لليهود: يعد الكتاب بيانًا أخلاقيًا مكثفًا من داخل الهوية اليهودية ذاتها، ويُخاطب ما يسميه المؤلف بالأزمة الأخلاقية لليهود المعاصرين، بعد أن ارتبطت الهوية اليهودية الغربية بشكل شبه مطلق بالدفاع عن الدولة الإسرائيلية، مهما بلغت وحشيتها. يمتد الكتاب على نحو 154 صفحة، ويتكون من مقدمة تمهيدية وخمسة فصول مركزية، بالإضافة إلى ملاحظات ختامية ومراجع تفصيلية. وعلى الرغم من أن الكتاب موجه لليهود، فإنه يحمل مضامين فكرية عميقة تهم أي باحث في الشأن السياسي والديني والحقوقي في الشرق الأوسط.

قصص العنف اليهودي: ينطلق بينارت في الفصل الأول من تفكيك السردية المركزية في الوعي اليهودي المعاصر، والتي تختزل التاريخ اليهودي في ثلاثية "حاولوا قتلنا، نجونا، فلنأكل". هذه العبارة التي يتم تكرارها في الاحتفالات الدينية والمناسبات القومية تُشكل جوهر ما يسميه الكاتب بالهوية القائمة على الاضطهاد، ويوضح أن الأعياد اليهودية مثل الفوريم وعيد الفصح أصبحت تُستخدم لتعزيز سردية أن اليهود ضحايا أزليين، مما يُبرر سياساتهم العنيفة بوصفها ردود فعل دفاعية لا هجومية.

المشكلة، من وجهة نظره، ليست في الاحتفال بالنجاة، بل في تجاهل الجانب القمعي الذي يُمارس حين يتحول اليهود من ضحايا إلى قوة تسيطر على شعب آخر، كما في حالة الفلسطينيين. ومن خلال أمثلة من التوراة، يُظهر كيف تم إغفال قصص العنف اليهودي القديم في سرديات اليوم، خصوصًا غزو كنعان وتطهيرها في سفر يشوع، بما يسمح برؤية انتقائية تبرر الاحتلال.

يرى الكاتب أن هذه الطريقة في استدعاء التاريخ تمنع التفكير النقدي في الحاضر. فهي تقدم الإسرائيليين كاستمرارية للضحايا التوراتيين، وتصور الفلسطينيين كأعداء ميثولوجيين دائمين. وهكذا يصبح التاريخ وسيلة لحجب الأخلاق، بدلًا من أن يكون مصدرًا لمحاسبة الذات.

الضحية والجلاد: يعرض بينارت في الفصل الثاني لحظة 7 أكتوبر 2023 التي هاجمت فيها حماس بلدات إسرائيلية قرب غزة، ويعرض شهادات واقعية عن الضحايا الإسرائيليين بطريقة إنسانية مؤثرة. إلا أن هذه السرديات لا تُستخدم لبناء خطاب تعبوي بل لإظهار التناقض الأخلاقي الذي وقع فيه اليهود الأمريكيين، عندما ركزوا فقط على هذه المعاناة، متجاهلين الرد الإسرائيلي الكارثي الذي دمر غزة بالكامل، وينتقد الكاتب الطريقة التي جرى بها تحويل هذه الأحداث إلى "هولوكوست مصغر"، تُستخدم لتبرير كل الأفعال الإسرائيلية بعدها، بما في ذلك قتل آلاف المدنيين الفلسطينيين.

يؤكد بينارت أن الفعل العنيف لا يأتي من فراغ، بل من منظومة اضطهاد مستمرة منذ عقود. ويضرب أمثلة عن أطفال فلسطينيين وُلدوا في الحصار، وتعلموا منذ الصغر أن جيشًا يسيطر على حياتهم من السماء والأرض. في هذا السياق، يُعيد الكاتب صياغة العلاقة بين الضحية والجلاد، رافضًا التبسيط الذي يرى في الفلسطينيين كراهية صافية، وفي الإسرائيليين دفاعًا شرعيًا. هذا الفصل يُعد من أكثر أجزاء الكتاب إنسانية وصدقًا في ملامسة التعقيد المأساوي للنزاع.

طرد ممنهج: يركز بينارت في الفصل الثالث على الطرق التي تتعمد من خلالها المؤسسات اليهودية في أمريكا وإسرائيل إنتاج سردية ناعمة للتاريخ، تُغفل جرائم 1948، وتُحرف واقع الاحتلال الراهن، ويوضح أن المؤسسات مثل AJC و ADLتقدم حكاية عن عودة الشعب اليهودي إلى أرضه، لكنها تتجنب تمامًا الحديث عن التهجير القسري، ويستخدم في ذلك وثائق إسرائيلية وأبحاث مؤرخين إسرائيليين مثل بني موريس لإثبات أن الطرد كان ممنهجًا.

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يناقش مسألة تعريف إسرائيل كدولة يهودية. فهو يرى أن هذا التعريف بحد ذاته يعني تمييزًا بنيويًا ضد الفلسطينيين، سواء داخل الخط الأخضر أو خارجه، ويجعل من الصهيونية مشروعًا فوقيًا لا ديمقراطيًا. وباستخدام أمثلة من الحياة اليومية، يوضح كيف يُحرم الفلسطينيون من الأرض، والمواطنة الكاملة، والموارد، وكيف أن نظام الحكم الإسرائيلي لا يتيح أي مساواة قانونية حقيقية.

يقدم الفصل نقدًا شديدًا لفكرة حق تقرير المصير اليهودي إذا كان قائمًا على تفوق جماعة إثنية على أخرى. فكما لم يُعترف بحق البيض في حكم السود بجنوب إفريقيا، لا يمكن الاعتراف بشرعية دولة تفرض على غير اليهود نظامًا قانونيًا أدنى.

معاداة السامية الجديدة: يُعالج الفصل الرابع الاتهامات المتكررة التي تُوجه لأي شخص ينتقد إسرائيل، حتى من اليهود أنفسهم، بأنه معادي للسامية. يُبين بينارت أن هذا الاتهام قد تحول من أداة لحماية اليهود من الكراهية العنصرية، إلى أداة لقمع النقد السياسي المشروع. ويعرض في كتابه حالات حقيقية من طلاب جامعات، وأكاديميين، تم اتهامهم باللاسامية فقط لأنهم دافعوا عن الفلسطينيين أو انتقدوا قصف غزة.

يحذر الكاتب من أن هذا الاستخدام المفرط لتهمة اللاسامية يُفرغها من معناها الحقيقي، ويُضعف المعركة ضد الكراهية الحقيقية. كما يرى أن الصهيونية لا يمكن أن تكون مساوية لليهودية، وأن نقد الأولى لا يعني بالضرورة معاداة الثانية، ويدعو إلى استعادة التعريف الأخلاقي لمعنى اليهودية كديانة وقيم، لا كأداة قومية للقمع.

أبناء قورح: يُعد الفصل الخامس الخاتمة الفكرية للكتاب، وفيه يستخدم بينارت الإشارة التوراتية إلى قورح الذي تمرد على سلطة موسى ليُعيد تعريف التمرد اليهودي من الداخل، ويدعو إلى رفض القبول الأعمى بسياسات إسرائيل باعتبارها تمثل اليهودية، ويحث على خلق تيار يهودي بديل، يقف إلى جانب المظلوم، لا القوي.

ويُقدم الكاتب هذا النداء ليس من منطلق خيانة الهوية، بل من عمق انتمائه إليها. بل يرى أن التمرد على الظلم هو وفاء حقيقي لقيم التوراة التي بدأت برفض العبودية. ويختم بنداء أخلاقي عميق، إن لم يتغير اليهود، ولم يراجعوا تحالفهم مع العنف، فإن اليهودية ذاتها ستفقد قدرتها على البقاء كرسالة إنسانية.

معركة مزدوجة: يقدم بيتر بينارت في هذا الكتاب أكثر من مجرد نقد سياسي؛ حيث يكتب نصًا اعترافيًا فكريًا من داخل التجربة اليهودية الحديثة، يخوض فيه معركة مزدوجة ضد الصمت الجماعي للمؤسسات اليهودية في الغرب تجاه الجرائم الإسرائيلية، وضد ضياع البوصلة الأخلاقية التي كانت فيما مضى تُشكل نواة الرسالة اليهودية.

وقد اختار أن يكتب بعد لحظة قاسية، تمثلت في الهجوم الإسرائيلي الشامل على غزة عام 2023، وما تلاه من دمار شامل ومشاهد وصفت بأنها جحيم بشري. لكنه لم يكتب بلغة التحريض العاطفي، بل بلغة التفكر العميق، ومن موقع المسؤولية الأخلاقية لا المعارضة السياسية فقط.

لا يُسقط الكاتب المسؤولية عن الفلسطينيين أو يعفي حماس من النقد، لكنه يصر على وضع العنف الفلسطيني داخل سياقه البنيوي، سياق الحصار، والطرد، والتجريد من الحقوق. وهذا ما يمنح أطروحته توازنًا أخلاقيًا نادرًا، بعيدًا عن النزعة التبريرية لأي طرف.

قراءة نقدية أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة - ديفيد ن. مايرز[iii]

في كتابه الجديد، لم يعد بيتر بينارت يدعم حل الدولتين للإسرائيليين والفلسطينيين، بل يقترح حل الدولة الواحدة الذي من شأنه أن يحقق التوازن بين المساواة لجميع المواطنين والالتزام بدعم الجماعات الفلسطينية واليهودية داخلها.

في عام 2010، كتب الصحفي بيتر بينارت مقالاً مُحفزاً بعنوان "فشل المؤسسة اليهودية الأمريكية"، وهو أشبه بـ"اتهام" ضد عالم مؤسسي دفع مشروع الصهيونية إلى "دوامة انحدارية". إن التزام المنظمات اليهودية الأمريكية السائدة، الذي لا جدال فيه، بسياسات بنيامين نتنياهو، الذي عاد إلى السلطة عام 2009 بعد فترة سابقة قبل عقد من الزمان، لم يكن خاطئاً فحسب، بل كان مُحبطاً للذات. وحذر بينارت قائلاً: "إذا لم يُغير قادة جماعات مثل آيباك ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية الكبرى مسارهم، فسيستيقظون يوماً ما ليجدوا قيادة صهيونية شابة، يهيمن عليها الأرثوذكس، يُخيفهم عداؤها الصريح للعرب والفلسطينيين، وجماهير من اليهود الأمريكيين العلمانيين الذين تتراوح مشاعرهم بين اللامبالاة والرعب".

في الواقع، كان جيل جديد من اليهود الأمريكيين العلمانيين - والأمريكيين الأصغر سنًا بشكل عام - ينفصلون بشكل متزايد عن إسرائيل والمشروع الصهيوني. قدم مقال بينارت، الذي شكل أساس كتابه أزمة الصهيونية (2012)، دعمًا فكريًا وأخلاقيًا لليهود الأصغر سنًا - وخاصة مجموعة من المتمردين الذين نهضوا في عام 2014 تحت شعار "IfNotNow"

(عبارة مستمدة من مقطع شهير من الأطروحة الأخلاقية اليهودية القديمة Pirke Avot). كان المحفز لتأسيس المجموعة هو حرب إسرائيل في غزة عام 2014، والتي كانت أكثر فتكًا وتدميرًا بأضعاف مضاعفة من الحروب السابقة في 2008-2009 و2012. في خطوة جريئة تعكس رسوخهم في التقاليد اليهودية، تمركز أعضاء IfNotNow أمام مقر المنظمات اليهودية والإسرائيلية الرائدة وقرأوا صلاة الحداد (كاديش) في ذكرى جميع اليهود والفلسطينيين الذين قتلوا في حرب 2014.

بيتر بينارت، الذي كانت له مسيرة مهنية صاروخية قبل هذه النقطة، بما في ذلك عمله كرئيس تحرير لمجلة ذا نيو ريبابليك في سن التاسعة والعشرين، أصبح المرشد الروحي لهذه المجموعة من اليهود من جيل الألفية. كانت مهمته، كما وصفها آنذاك، إنقاذ مشروع الصهيونية الليبرالية، الذي أسماه "التحدي اليهودي الأمريكي الكبير في عصرنا". ولكن على مدار ما يقرب من عقد ونصف، ابتعد عن دفاعه عن الصهيونية الليبرالية - وعن هدفها المركزي المتمثل في تعزيز حل الدولتين. يقترح كتابه الجديد حلاً سياسيًا مختلفًا، وهو دولة واحدة من شأنها أن توازن بين المساواة لجميع المواطنين والالتزام بدعم الجماعات الفلسطينية واليهودية داخلها. وفي هذا الهدف، يستكشف بينارت مجموعة مميزة من الصهاينة من عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، معظمهم من اليهود الألمان المرتبطين بحركة السلام المبكرة بريت شالوم، الذين تجنبوا المطالبة بأغلبية يهودية في دولة يهودية لصالح ثنائية القومية.

إن المهمة الأساسية لكتاب "أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة: محاسبة" ليست تعزيز هذه الرؤية، بل هي نداء عاجل إلى إخوانه اليهود لتجاوز العمى المُستَهلِك الذي أحدثته صدمة السابع من أكتوبر. يُعد الكتاب صرخة من القلب، تعبيرًا عن ألم باينارت العميق واستيائه من عدم اعتراف اليهود بالدمار والمعاناة الهائلين اللذين ألحقتهما إسرائيل بغزة - والذي وصفه علنًا بالإبادة الجماعية. يؤكد أن الصهاينة القدامى، إلى جانب أولئك الذين ترسخت قناعاتهم الصهيونية حديثًا بعد السابع من أكتوبر، قد انغمسوا في هاوية أخلاقية وسياسية عميقة. لقد قدّسوا دولة إسرائيل باعتبارها حامية المصالح اليهودية لدرجة أنهم يُصرّون على أن أي إجراء تتخذه هو، بحكم تعريفه، إجراءٌ فاضل. يسير باينارت هنا على خطى العالم والفيلسوف الإسرائيلي المتمرد على التقاليد، يشعياهو ليبوفيتش، الذي اشتهر بانتقاده اللاذع لاحتلال إسرائيل للضفة الغربية ابتداءً من عام 1967. قبل ذلك بكثير، أدان ليبوفيتش، وهو يهودي أرثوذكسي، الطريقة التي تميل بها جهات الدولة الإسرائيلية إلى إضفاء قدر من القداسة على الأعمال السياسية والعسكرية الدنيوية. لم يكن اختلاط الدين بالسياسة الذي ندد به خطيرًا فحسب، بل كان من شأنه تبرير أي خطوة باسم الدولة الفاضلة، بل كان، كما وصفه ليبوفيتش، "عبادة وثنية".

يعتمد بينارت بشكل كبير على ليبوفيتز في الدفاع عن النظرة الأسطورية لدولة إسرائيل كمثال للفضيلة، بينما في الواقع أصبحت مصدرًا للتبجيل الوثني. في العالم المانويّ الذي يصفه، يرى مؤيدو إسرائيل أي شيء تفعله الدولة، بما في ذلك ما حدث في غزة في عامي

2023 و2024، مشروعًا، وعلى العكس، يرى أي شيء يفعله الفلسطينيون دعمًا لسعيّهم من أجل الحرية غير شرعي وغير أخلاقي. وهذا لا يشمل فقط أشكال المقاومة المسلحة المختلفة (على سبيل المثال، تلك التي تستهدف المدنيين وتلك التي لا تستهدفهم)، بل يشمل أيضًا أشكال الاحتجاج السلمية (مثل حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات). في النظرة العالمية المبررة تمامًا للدعوة المؤيدة لإسرائيل، يمكن للمرء أن يبرر ويبرر كل إجراء تتخذه الدولة - بما في ذلك الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنساني الدولي - على أنه صحيح أخلاقيًا وكرد فعل ضروري على التاريخ الطويل من الاضطهاد ضد اليهود. على العكس من ذلك، في عالم كهذا، يمكن للمرء بسهولة أن يحجب عن الرؤية معاناة وإنسانية الآخر. في هذا الصدد، يتذكر بينارت مقالاً من صحيفة نيويورك تايمز من أبريل 2024 يصف الموت والإصابات الخطيرة وفقدان الممتلكات التي حلت بأعضاء دفعة 2023 من كلية طب الأسنان بالأزهر نتيجة للغارات الجوية الإسرائيلية. وأعرب عن أسفه العميق لأن المزيد من اليهود لم يظهروا تعاطفًا مع هؤلاء الخريجين الذين عانوا خلال الحرب (والذين كانوا من بين مئات الآلاف من الطلاب الذين حرموا من التعليم منذ وقت الهجمات الإسرائيلية بعد 7 أكتوبر). وأشار بينارت إلى أن "الحسابات X لرابطة مكافحة التشهير واللجنة اليهودية الأمريكية والحكومة الإسرائيلية ورئيس الوزراء الإسرائيلي ذكرت طلاب الجامعات (اليهود) أكثر من أربعمائة مرة بين 7 أكتوبر 2023 و4 يونيو 2024. ولم يذكروا ولو مرة واحدة معاناة الطلاب في قطاع غزة".

من أهم أهداف الكاتب في كتابه "أن تكون يهوديًا" استعادة تراث يهودي مختلف عن التراث الذي يُمكّن من اللامبالاة بمثل هذه المعاناة. ويصل إلى هذا الاستعادة، في المقام الأول، من خلال النفي. وهكذا، يُلفت الانتباه إلى ما يراه مُشكلًا في النصوص اليهودية المُبجّلة من الماضي. واستلهامًا من روح ليبوفيتز، يُشير إلى غطرسة قورح التوراتي، الذي تحدى موسى مُجادلًا بأنه ليس النبي العظيم وحده هو المُقدّس، بل "كل جماعة إسرائيل مُقدّسة" (سفر العدد 16: 3). بالنسبة لبينارت، كما هو الحال مع ليبوفيتز، فإنّ انتحال القداسة للذات وفّر غطاءً لمن يرتكبون أعمالًا مُدمّرة وغير أخلاقية. ومن بين الأماكن التي يُمكن أن نجد فيها هذا الدافع عيد المساخر، وهو احتفالٌ كرنفاليٌّ لليهود الذين هربوا من حكم هامان في بلاد فارس القديمة. على الرغم من استمتاع الأطفال اليهود بعبثية عيد المساخر، يلاحظ بينارت أن ما يُغفَل غالبًا هو جريمة القتل الجماعي بدافع الانتقام التي ارتكبها اليهود في النص المحوري لعيد المساخر، وهو سفر إستير. كان هذا الفعل هو ما حفّز باروخ غولدشتاين، المستوطن الإسرائيلي الأمريكي، على دخول الحرم الشريف في الخليل في عيد المساخر عام 1994 وإطلاق النار، ما أسفر عن مقتل 29 مصليًا مسلمًا.

في إعادة النظر في النصوص والطقوس اليهودية، يُعتبر بينارت يهوديًا جادًا وملتزمًا، ولكنه ليس لاهوتيًا بنّاءً. لذا، لا يُقدّم الكتاب إعادة بناء متينة لمجموعة متنافسة من النصوص اليهودية التي تدعم فلسفة السلام والمحبة. بل ما يُقدّمه هو منهجٌ للاستعادة مُستمدّ من الممارسات اليهودية القديمة. يُؤطّر بينارت طموحه في بداية الكتاب بالإشارة إلى العلاقة بين

إليشع بن أبويا ومعلمه السابق، الحاخام مائير - وهما حكيمان من القرن الأول الميلادي في فلسطين. عُرف إليشع باسم "أخر"، أي الآخر، بسبب إعلانه الهرطوقي عن حياةٍ قائمة على مراعاة الطقوس. ومن أشهر الأساطير المحيطة بإليشع أن معلمه الحاخام مائير لم يقطع الاتصال به، بل استمر في الاستفادة من معرفته الغنية بالتوراة. يطرح بينارت العلاقة بين الطالب المُهرطق وحاخامه المُبجل كنموذج يُحتذى به هو وغيره من مُحطمي التقاليد في التعامل مع أفراد الجالية اليهودية الأكثر تقليديةً ومؤيدين لإسرائيل، والذين يختلفون معهم اختلافًا عميقًا. يقول في مستهل كتابه: "هذا الكتاب مُوجّه لليهود الذين ما زالوا يجلسون على مائدة السبت، ولليهود - أحيانًا لأبنائهم - الذين غادروا المكان باشمئزاز. أتوق إلى أن نجلس معًا". ثم يُتابع: "ولكن ليس بهذه الطريقة. ليس كأسياد البيت".

إن رغبته في إعادة تشكيل الرواية اليهودية عن إسرائيل - من خلال الاعتراف بالآثار المدمرة التي أحدثها المشروع السياسي للصهيونية على الفلسطينيين - تثير انتقادات من كلا جانبي الطيف الأيديولوجي. على اليسار، يُنظر إلى بينارت على أنه مدافع غير راغب في فك ارتباطه بسُمية الصهيونية، التي لا يزال يدعيها بشكل غير متوقع كدولة واحدة ثنائية القومية مستمدًا من إرث الصهاينة الثقافيين قبل الدولة مثل جوداه إل. ماغنيس ومارتن بوبر. علاوة على ذلك، فإن خيبة أمله العميقة تجاه أولئك الذين أشادوا بهجمات حماس في 7 أكتوبر أو لم يبالوا بها، إلى جانب تعاطفه مع الطلاب اليهود الذين شعروا بعدم الارتياح خلال احتجاجات الحرم الجامعي العام الماضي، دفعت الناقد آزاد عيسى إلى الإصرار على أن الكتاب "لم يكن حسابًا على الإطلاق". بدلاً من ذلك، يكتب، "إنه في الحقيقة محاولته لتوفير طريق هروب لليهود أو الصهاينة اليهود مما ارتكبوه ضد الفلسطينيين".

بينما ينتقده عيسى وآخرون لتركيزه المُفرط على الذات (والذي يُعتبر، في نظرهم، غير كافٍ) على العار اليهودي، ينتقده منتقدوه من اليمين بشدة بسبب جملة من الخطايا، بما في ذلك محاولته الجريئة لاستعادة التقاليد اليهودية. يجادل الكاتب الإسرائيلي عساف ساجيف بأن كتاب "أن تكون يهوديًا" "يُقدم الخلطة التقدمية المألوفة من الوعظ المُتزمِّت (المُوصوف، كالعادة، بـ"الإنسانية اليهودية")، والتماهي التلقائي مع ضحايا مُحددين مسبقًا، وإنكار مُتعنِّت للحقائق". ثم يواصل مهاجمة بينارت لما يراه تشبيهات تاريخية مُهملة وفاضحة - مثل تلك التي وقعت بين 7 أكتوبر وانتفاضة العبيد الهايتيين العنيفة التي اغتُصب فيها آلاف الأوروبيين وقُتلوا كعمل من أعمال العنف التحرري الذي أدى إلى الاستقلال عام 1804. يستذكر ساجيف ذكرى سي. إل. آر. العظيم. جيمس، الذي أدرك تفرد نجاح الثورة، مشيرًا في الوقت نفسه إلى أن "مذبحة البيض كانت مأساة". يرفض ساجيف رفضًا قاطعًا مقارنة بينارت بالثورة الهايتية. يرى أن الصهيونية كانت حركة تحرر وطني مناهضة للاستعمار، وقد تعرضت هي نفسها لهجمات متكررة من عدو إبادة جماعية وحشي. من هذا المنظور، ليس من المستغرب ألا يرى أن بينارت قد اهتزت شوكته في السابع من أكتوبر، وشعر بخيبة أمل شديدة لأن أصدقاءه السابقين من اليسار لم يدينوا مذبحة المدنيين في ذلك اليوم.

في حين أن بينارت لا يتسامح مع أحداث السابع من أكتوبر بأي شكل من الأشكال، إلا أنه يسعى إلى فهم الظروف التي أدت إلى اندلاع العنف في ذلك اليوم. أي أنه يراه نتيجة عقود من الاحتلال الإسرائيلي الوحشي للفلسطينيين، والذي عرقل باستمرار أي مسار عملي للاحتجاج السلمي. وبالتالي، فإنه يطرح للنقاش مسألة حساسة تتعلق بشرعية الكفاح المسلح. ففي نهاية المطاف، كان الكفاح المسلح أداة رئيسية للجماعات شبه العسكرية الصهيونية في فلسطين الانتدابية، والتي عمل بعضها ليس فقط ضد أهداف عسكرية بل ومدنية أيضًا. يُعد هذا التمييز محوريًا في النقاشات حول ما هو مسموح به وفقًا للقانون الدولي. إن تناول هذه المسألة، كما يفعل بينارت، أمر مُربك، وخاصة لمن يتبعون نهج اللاعنف (كما نقل إليّ اثنان من كبار المدافعين عن اللاعنف في لوس أنجلوس، القس جيمس لوسون والحاخام ليونارد بيرمان). ولكن طرحها يعني في الوقت نفسه إقرارًا بمركزية العنف في النضال الصهيوني، ومعالجةً لمسألة محورية في القانون الدولي.

يحمل كتاب بينارت رسالة شجاعة حقيقية. فهو يعلم أنه سيُهاجم من كلا طرفي الطيف السياسي، لكنه لا ييأس. يسعى إلى أن يشرح للناشطين المؤيدين لفلسطين عمق الصلة التاريخية اليهودية بفلسطين، ولماذا يُعدّ قتل المدنيين الإسرائيليين ليس فقط غير قانوني وغير أخلاقي، بل يُمزّق روحه. وهو منزعج بشدة من الغموض المتأصل لدى رفاقه اليهود، أولئك الذين يطمح إلى الحوار معهم، والذين لا يزالون غارقين في صدمة السابع من أكتوبر. ويحثّ قائلاً: "أتمنى أن تستجمعوا بعضًا من ذلك الغضب المُبرر تجاه الفلسطينيين الذين ذُبحوا بأعداد أكبر."

من السهل تجاهل بينارت باعتباره ساذجًا مُتغطرسًا، عازمًا على الترويج لنسخته الخاصة من الأخلاق النبيلة. والواقع أن الكثيرين فعلوا ذلك. لكن قبل مواصلة هذا المسار، لا بد من التساؤل: كم من الناس قادرون على مقاومة المانوية المزمنة التي ترى الخير في مواجهة الشر بنظريات أحادية البعد كما هو متوقع، مفضلين بدلاً من ذلك منظوراً يهتم برفاهية الفلسطينيين واليهود دون تجاهل الفارق الهائل في القوة بينهما؟ كم من الناس يحشدون خيالهم السياسي للتفكير فيما وراء الطريق المسدود الحالي حيث سيتجاهل دعاة الدولتين وجود مئات الآلاف من المستوطنين الإسرائيليين، ويفترض دعاة الدولة الواحدة بسذاجة أن اليهود والفلسطينيين سيفرحون باحتمال العيش معاً كمواطنين متساوين دون أي تفكير في الشكل القوي للجماعية الثقافية التي يمتلكها كل منهما ويريد الحفاظ عليها؟ وكم من الناس قادرون على صياغة حجة مقنعة بأن المطلب الملح لتحرير فلسطين هو ضرورة أخلاقية يهودية من الدرجة الأولى؟

ينضم بينارت إلى موجة من الكتاب الذين انتقدوا مؤخرًا استخدام السلطة اليهودية وإساءة استخدامها في إسرائيل، منهم ميخائيل مانيكين في كتابه "نهاية الأيام"، وتا-نهيسي كوتس في كتابه "الرسالة"، و(كما ورد في هذه الصفحات) بانكاج ميشرا في كتابه "العالم بعد غزة". ووسط هذه القائمة المميزة، يُبرز بينارت صوته الأخلاقي المُستمد من ممارسة غالبًا ما يغيب عنها الخطاب السياسي: النقد الذاتي الدؤوب. بدلًا من أن يُذم أو يُسخر منه، يستحق بينارت

الثناء على كتابه الصادق والشجاع والكاشف للذات، والذي يُصرّ على أن تحقيق الذات اليهودية الأخلاقية والروحية لا يمكن أن يتحقق في ظل استمرار نير القمع الإسرائيلي الذي يُثقل كاهل الفلسطينيين، مما يُعيق تحررهم الذي طال انتظاره.

نبذة عن المؤلف[iv]

بيتر ألكسندر بينارت كاتب عمود سياسي ليبرالي أمريكي، وصحفي، ومعلق سياسي. كان محررًا سابقًا في صحيفة ذا نيو ريبابليك، وكتب أيضًا لمجلات تايم، وذا أتلانتيك، ونيويورك ريفيو أوف بوكس، وغيرها من الدوريات. ألّف أربعة كتب.

هو برفسور خريج صحافة وعلوم سياسية في كلية كريج نيومارك للدراسات العليا في الصحافة بجامعة مدينة نيويورك. وهو محرر في مجلة "تيارات يهودية"، وكاتب مقالات رأي مساهم في صحيفة نيويورك تايمز، ومعلق سياسي في قناة إم إس إن بي سي، وزميل في مؤسسة السلام في الشرق الأوسط.

وُلِد بينارت فب 28 فبراير 1971 في كامبريدج، ماساتشوستس. كان والداه مهاجرين يهوديين من جنوب أفريقيا. جده لأمه من روسيا، وجدته لأمه، وهي سفاردية، من مصر. كان والدا والده من ليتوانيا. والدته، دورين (ني بينار)، مديرة سابقة لبرنامج أفلام حقوق الإنسان في كلية جون إف كينيدي للإدارة الحكومية بجامعة هارفارد، ووالده، جوليان بينارت، أستاذ سابق في الهندسة المعمارية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. زوج والدته هو الناقد المسرحي والكاتب المسرحي روبرت بروستين.

التحق باينارت بمدرسة باكنغهام براون ونيكولز في كامبريدج، وتخرج منها عام 1989. ثم درس التاريخ والعلوم السياسية في كلية ييل، حيث كان عضوًا في الاتحاد السياسي بجامعة ييل، وتخرج منها عام 1993 بجائزة ألفيوس هنري سنو. حصل على منحة رودس من كلية جامعة أكسفورد، حيث حصل على ماجستير الفلسفة في العلاقات الدولية عام 1995.

عمل بينارت في مجلة "ذا نيو ريبابليك" رئيسًا للتحرير من عام 1995 إلى عام 1997، ثم محررًا أول حتى عام 1999، ثم محررًا للمجلة من عام 1999 إلى عام 2006. وخلال معظم تلك الفترة، كتب أيضًا عمود "TRB" في المجلة، والذي أُعيد نشره في صحيفة نيويورك بوست وصحف أخرى. ومن عام 2007 إلى عام 2009، كان زميلًا أول في مجلس العلاقات الخارجية. بينارت أستاذ مشارك في الصحافة والعلوم السياسية بجامعة مدينة نيويورك. كتب لمجلة تايم، وصحيفة نيويورك تايمز، ومجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس، ودوريات أخرى. ظهر في العديد من برامج النقاش الإخبارية التلفزيونية، وهو معلق سياسي في قناة إم إس إن بي سي. وصفه رئيس تحريره في صحيفة "ذا فوروارد" بأنه "عبقري".

كما كان كاتبًا سياسيًا أول في صحيفة "ذا ديلي بيست". في 12 مارس 2012، أطلق بينارت مدونة جماعية جديدة، "ساحة صهيون"، والتي أعيدت تسميتها إلى "صهيون المفتوحة" بعد

أسبوعين، في صحيفة ديلي بيست/نيوزويك. وفي عام 2012 أيضًا، تم إدراج بينارت في قائمة مجلة فورين بوليسي لأفضل 100 مفكر عالمي.

في 4 نوفمبر 2013، أعلنت صحيفة هآرتس أن بينارت سيُعيّن كاتب عمود ابتداءً من 1 يناير 2014. وفي اليوم نفسه، أعلنت شركة أتلانتيك ميديا أنه سينضم إلى ناشيونال جورنال ويكتب لموقع أتلانتيك الإلكتروني ابتداءً من يناير، وذكر بيان من صحيفة ديلي بيست أن "أوبن صهيون" سيتوقف. في عام 2017، غادر بينارت صحيفة هآرتس وأصبح كاتب عمود في صحيفة ذا فوروارد، حيث بقي حتى عام 2020، عندما انضم إلى التيارات اليهودية كمحرر عام.

في أغسطس 2018، احتجز جهاز الأمن الداخلي (الشاباك) بينارت في مطار بن غوريون الإسرائيلي واستجوبه بشأن حضوره احتجاجات الضفة الغربية وانتقاده الصريح لسياسات الحكومة الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين. وصف بينارت تجربته بأنها "تافهة" مقارنةً بتجارب الآخرين، وخاصةً الفلسطينيين والأمريكيين الفلسطينيين الذين يسافرون عبر مطار إسرائيل الرئيسي. وذكر بيان صادر عن مكتب رئيس الوزراء أن بنيامين نتنياهو سأل قوات الأمن الإسرائيلية عن سبب احتجاز بينارت، فأُبلغ بأن احتجازه كان خطأً إداريًا. وأضاف البيان: "إسرائيل مجتمع منفتح يرحب بالجميع، منتقدين ومؤيدين على حد سواء".

كان بينارت محررًا لمجلة "ذا نيو ريبابليك" عندما دعمت المجلة تحريريًا غزو العراق عام 2003؛ وقد عُرف بينارت بأنه أحد القوى الرئيسية وراء دعم المجلة للحرب. في عام 2004، قيّمت افتتاحية في "ذا نيو ريبابليك" كُتبت خلال فترة عمله التحريري دعم المجلة لحرب العراق على النحو التالي: "نشعر بالندم، ولكن لا نشعر بالخجل... لقد انهار مبررنا الاستراتيجي للحرب". في عام 2010، قال بينارت إنه كان مدفوعًا لدعم حرب العراق بقلق من أن صدام حسين كان يطور أسلحة نووية، وهو قلق ثبت أنه لا أساس له من الصحة.

بينارت هو مؤلف كتاب "المعركة الصالحة: لماذا يستطيع الليبراليون - والليبراليون فقط - كسب الحرب على الإرهاب وجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى" الصادر عام 2006. الكتاب، الذي انبثق من مقال نُشر عام ٢٠٠٤ في مجلة "ذا نيو ريبابليك" جادل بضرورة أن يأخذ الديمقراطيون خطر الشمولية الإسلامية على محمل الجد، هو دفاع ليبرالي عن التدخل العسكري الخارجي، لا سيما بهدف إصلاح دول مختلفة في الشرق الأوسط.

وُلد كتاب بينارت الثاني، "متلازمة إيكاروس: تاريخ الغطرسة الأمريكية" (2010)، من رغبته في فهم كيف أخطأ في تقدير حرب العراق. "نظر الكتاب إلى الوراء في المئة عام الماضية من السياسة الخارجية الأمريكية في ضوء الأحداث الأخيرة المشؤومة [ووجد] أرضيةً مليئة ببقايا الأفكار العظيمة والثقة غير المستحقة [كما يتضح من] دراسة ثلاث حروب لا داعي لها"، وهي الحرب العالمية الأولى، وحرب فيتنام، وحرب العراق.

كتاب بينارت الثالث، "أزمة الصهيونية" (2012)، يصف فيه آراءه حول الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. على وجه الخصوص، يزعم بينارت أن السياسات التي يتبناها الصهاينة، وخاصةً في ظل حكومة الليكود بزعامة بنيامين نتنياهو، تتعارض بشكل متزايد مع المُثُل الليبرالية.

جادل بينارت بأن "الدولة اليهودية والديمقراطية هي في الواقع تناقض" ويدعم حل الدولة الواحدة. صدر كتاب بينارت الرابع، "أن تكون يهودياً بعد تدمير غزة: حساب"، في يناير 2025. وفيه، يجادل بأن "النصوص والتاريخ واللغة اليهودية استُخدمت لتبرير المذابح الجماعية والتجويع [لسكان غزة]".

نص الكتاب

اهداء

في ذكرى جدتي أديل بينار، التي لم تتفق مع الحجج الواردة في هذا الكتاب. رغم ذلك فإن روحها موجودة في كل صفحة.

اليهودية تُركّز على عالمية العدالة، وعلى خصوصية الحب.

الحاخام جوناثان ساكس

رسالة إلى صديقي السابق

أفكر فيك كثيرًا، وفي الجدل الذي فرّقنا. أعلم أنك تعتقد أن معارضتي العلنية لهذه الحرب - ولفكرة دولة تُفضّل اليهود على الفلسطينيين - تُشكّل خيانةً لشعبنا. أعلم أنك تعتقد أنني أُعرّض عائلتك للخطر.

يعكس هذا الشقاق في علاقتنا انقسامًا أوسع داخل قبيلتنا، بين الأمريكيين والإسرائيليين، اليسار واليمين، الشباب والكبار. عندما أدخل كنيسًا يهوديًا، لم أعد متأكدًا من الذي سيمد يده ومن سيُشيح بنظره. ربما تشعر بقلق مماثل في الأوساط التقدمية حيث كنت تشعر يومًا ما وكأنك في وطنك. لطالما تشاجر اليهود، ويجب علينا ذلك. لكنني أخشى أنه بالنظر إلى مسار الأحداث في إسرائيل وفلسطين، قد نتجاوز مجرد الخلاف، نحو الكراهية.

لا أريد أن أزيد من هذا الحقد والألم. بينما آمل أن أقنعك بآرائي، تُصرّ تقاليدنا على أن لديّ التزامات تجاهك سواء أقنعتك أم لا. وتقدم نماذج لكيفية التعبير عن تلك الالتزامات. عندما أفكر في العلاقة التي أسعى إليها، يتبادر إلى ذهني نموذجان من هذا القبيل.

في الأول، أنا - ومن يتفق معي من اليهود أليشع بن أبويا، والحاخام مائير. يصف التلمود أليشع بالهرطقة. يقول البعض إنه فقد إيمانه عندما رأى صبيًا يُطيع أمر والده بأداء فريضة ثم يموت. ويقول آخرون إنه حدث ذلك عندما رأى لسان حكيم مقتول ملقى في الشارع. على أي حال، لم ينطق معظم الحاخامات باسمه حتى. قالوا إنه عندما كان في رحم أمه، تدفقت الردة عبره كـ"سمّ أفعى". أطلقوا عليه اسم "أخِر"، أي الآخر، الخارج عن المألوف.

لكن ليس تلميذه السابق، الحاخام مائير. في أحد أيام السبت، مر أليشع بقاعة دراسة الحاخام مائير راكبًا حصانًا، وهو فعل محظور في يوم الراحة. مع ذلك، قطع الحاخام مائير محاضرته وبدأ يسير بجانب المتمرد سيئ السمعة. ناقش الاثنان التوراة حتى حذر أليشع الحاخام مائير من أنه إذا تجرأ على المضي قدمًا، فسوف ينتهك الألفي ذراع المسموح له بالمشي عليها في يوم السبت. تابع إليشع حديثه قائلًا: "تجاوزتُ الحدود التي لن يتجاوزها الحاخام مائير، تمامًا كما تجاوزتُ حدودًا لن تتجاوزها أنتَ في آرائي حول إسرائيل وفلسطين. لكنهما سارا معًا إلى أقصى حدٍّ ممكن، وافترقا باحترام."

في النموذج الثاني، أنا وأمثالي ديفيد مالتر، والحاخام إسحاق سوندرز في رواية حاييم بوتوك "المختار". في بروكلين في أربعينيات القرن الماضي، اشتبك الاثنان بشراسة حول إنشاء دولة يهودية. ومع ذلك، عندما يقول ابن مالتر إنه يكره سوندرز، يدافع مالتر عن منافسه الأيديولوجي. يقول إن "إيمان اليهود مثل الحاخام سوندرز" هو الذي "أبقانا على قيد الحياة طوال ألفي عام من الاضطهاد العنيف."

لقد تغير النقاش حول إسرائيل جذريًا منذ ذلك الحين. ومع ذلك، تُذكرني قوميتك المتحمسة بإيمان الحاخام سوندرز المتحمّس. إنه يُخيفني ويُريحني في آنٍ واحد.

أعتبر تركيزك الأحادي على الأمن الإسرائيلي غير أخلاقي ومُحبط للذات. إنه يبرر أفعالًا أعتبرها جرائم خطيرة. إنه يُعميك عن الترابط الجوهري بين السلامة اليهودية والفلسطينية. عندما أسمعك تُردد بصوت عالٍ بشأن الإسرائيليين الذين قُتلوا وأُسروا في 7 أكتوبر، أتمنى أن تستجمع بعضًا من ذلك الغضب المُبرر للفلسطينيين الذين ذُبحوا بأعداد أكبر.

لهذا السبب أطلقت على هذا الكتاب عنوان "أن تكون يهوديًا بعد تدمير غزة"، وليس "أن تكون يهوديًا بعد 7 أكتوبر". ليس لأنني أقلل من شأن ذلك اليوم. مثلك، ما زلتُ أشعر بالصدمة من رعبه. اخترتُ العنوان الأول لأنني أعلم أنك تُصارع رعب ذلك اليوم. أخشى أنك لا تُصارع رعب الأيام التي تلت ذلك اليوم وسبقته بشكل كافٍ أيضًا. أراك كما رأى ديفيد مالتر ريب سوندرز، كنوع من المتعصبين. لكن ثمة جزء مني يشك في أن تعصبك، مثل تعصبه، هو ما أبقى شعبنا في عالم لا يرحم. عندما أراك ترتدي قلادات معدنية لتذكر نفسك، كل ساعة من كل يوم، بالرهائن في غزة، أعلم أنه لو كنت بين هؤلاء الرهائن، لقاتلت بشراسة من أجل إطلاق سراحي. كنت ستفعل ذلك تحديدًا بسبب القبلية التي أخافها. وفي كوابيسي، أتخيل نفسي - مهجورًا من قبل جميع الشموليين المستنيرين - أطرق بابك بقلق.

بقراءة هذه الكلمات، وافقت على السير معي. آمل أن أجذبك إلى ما وراء الحدود المرسومة. ولكن أينما افترقنا، آمل ألا يكون الفراق نهائيًا، وألا تكون رحلتنا معًا قد انتهت.

مقدمة: نحتاج إلى قصة جديدة

يطرح التلمود سؤالاً: إذا سرقت يهودياً مات بلا أقارب أحياء، فكيف ترد المال؟ ثم يرفض الفرضية القائلة: لا يوجد يهودي بلا أقارب. وكما يوضح راشي، المفسر الشهير في العصور الوسطى [٧]، فنحن جميعاً أبناء جدنا يعقوب. كلنا أقارب بعضنا البعض.

هكذا نشأتُ على رؤية العالم: اليهود عائلة ممتدة. لم أتعلم هذه الفكرة أساساً من النصوص المقدسة، بل استوعبتها - عبر آلاف التعليقات المتفرقة - من اليهود الذين ربّوني.

أتذكر أنني دخلتُ في طفولتي مع جدي إلى مبنى سكني في ضاحية بوسطن ذات الكثافة السكانية اليهودية العالية. على الرغم من أنه كان يعيش في جنوب أفريقيا، ولم تكن لديه سوى معرفة ضئيلة بالمنطقة، إلا أنه بدا مرتاحاً تماماً. عندما رأيته يتفقد الأسماء بجانب جرس الباب، سألته إن كان يعرف أياً من هؤلاء الأشخاص. قال إنه يعرفهم جميعاً.

عندما كنت أستعد للمغادرة إلى الجامعة، لاحظتُ أن والدتي تفعل الشيء نفسه. كانت قلقة. لم يكن لدينا أقارب أمريكيون تقريبًا؛ كنا دائمًا أربعة فقط. الآن، أنا، وأختي الكبرى، على وشك المغادرة. تلقينا ظرفٌ يحمل معلوماتٍ عن سكن الجامعة. نظرة إلى قائمة الطلاب في مسكني وبدأت بتلاوة الأسماء المألوفة بصوتٍ عالٍ: شابيرو، سبيكتور، كلاين. كانت هي من جعلتني لا أكون وحدي.

قلبتُ عينيّ حينها. لكن هذه الطريقة في إدراك العالم ترسخت في ذهني. بعد عقودٍ عديدة، كنتُ في مؤتمرٍ في كولورادو عندما علمتُ بوفاة جدتي. كان يوم جمعة، ولم أستطع السفر إلى كيب تاون (في جنوب افريقيا) إلا بعد انتهاء السبت. ذهبتُ إلى مركز حاباد[6] المحلي، وشاهدتُ أطفال الحاخام يركضون بجنون - كما فعلتُ ذات مرةٍ في أثناء حضرتي ولائم جدتي في أيام السبت - وتحدثتُ مع غرباء حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وعرفتُ أنها ستكون سعيدةً، لأنني كنتُ مع عائلتي.

كيف لشخصٍ مثلي، لا يزال يعتبر نفسه مخلصًا لليهود، أن ينتهي به المطاف مُلْعَنًا في الشارع من قِبل أشخاصٍ يعتقدون أن الولاء لليهود يستلزم طردي من الكنيس؟ بدأ الأمر في تلك حضوري الولائم الدينية نفسها في كيب تاون، عندما بدأتُ أُفكّر في الأشخاص الآخرين الذين كانوا حاضرين. كانوا يحومون حول المحيط، في المطبخ أو الحديقة، يقومون بالأعمال الشاقة. كانوا خاضعين قانونيًا، وهو ما قيل لي إنه ضروري. لأنهم سيقتلوننا إذا فعلنا ذلك.

وعندما بلغتُ سن الرشد، انهارت تلك القصة. انتهى نظام الفصل العنصري. حُلّ الجيش الذي أخاف الكثير من البيض بمجرد أن تمكن السود في جنوب إفريقيا من التعبير عن أنفسهم ببطاقة اقتراع بدلًا من السلاح. بقيت التفاوتات العميقة قائمة؛ ولم تعش البلاد في سعادة دائمة. ومع ذلك، اختفت إلى حد كبير القصة التي سمعتها باستمرار في شبابي - أن السلامة تتطلب السيادة. إنها الآن مصدر إحراج. بالكاد يروي أحد هذه القصة عن جنوب إفريقيا بالوقت الحالي.

ومع ذلك، كل يوم، يتحدث اليهود عن إسرائيل. أسمع ذلك من أشخاص أعرفهم وأحترمهم، بل وأحبهم. يبدو الأمر كما لو أن اليهود من جميع أنحاء العالم يجلسون معًا، في منزل واحد، لقضاء يوم السبت. يعيش بعضنا هناك؛ والبعض الآخر يزورنا. يتباطأ الوقت مع حلول الليل. يمكنك تقريبًا سماع الجميع يتنفسون الصعداء. أريد أن أكون على تلك المائدة، عضوًا ذا مكانة طيبة، لأن المنزل يقع في مكان لطالما اعتبرناه ثمينًا. ولأنه موطن لما يقرب من نصف اليهود على وجه الأرض.

لكن أناسًا آخرين عاشوا هناك حتى قبل بناء المنزل. لفترة طويلة، كانوا مكتظين في غرف ضيقة وقذرة. الآن أصبحت حالتهم أكثر سوءًا. يعاني البعض من سوء التغذية؛ ويصرخ الكثيرون من الألم. يدعي بعض الناس على المائدة أن الصراخ مفتعل وأن الجروح مزيفة. يعترف آخرون بأن الإصابات حقيقية لكنهم يصرون على أن هؤلاء التعساء جلبوا المعاناة على أنفسهم. لقد ارتكبوا جرائم لا توصف. يريدوننا أن نموت. ليس لدينا خيار.

هذا الكتاب عن القصة التي يرويها اليهود لأنفسهم لإخفاء الصراخ. إنه عن القصة التي تُمكّن قادتنا وعائلاتنا وأصدقاءنا من مشاهدة تدمير قطاع غزة - هدم الجامعات، وإجبار الناس على صنع الخبز من القش، وتجمد الأطفال حتى الموت تحت أنقاض المباني التي حوّلتها دولة تتحدث باسمنا - وهزّوا أكتافهم، إن لم يصفقوا. إنه عن القصة التي تُقنع حتى اليهود الذين يتألمون حقًا من معاناة غزة بأنه لا توجد طريقة أخرى للحفاظ على سلامتنا. إنها نسختنا من قصة تُروى بأشكال مختلفة من قبل شعوب عديدة في أماكن عديدة، الذين قرروا أن حماية أنفسهم تتطلب إخضاع الآخرين، وأن المساواة تُعادل الموت.

أملي هو أن نرى يومًا ما إبادة غزة كنقطة تحول في التاريخ اليهودي. من تدمير الهيكل الثاني إلى الطرد من إسبانيا إلى الهولوكوست، روى اليهود قصصًا جديدة للرد على الأهوال التي تحملوها. يجب علينا الآن أن نروي قصة جديدة للرد على الرعب الذي ارتكبته دولة يهودية، بدعم من العديد من اليهود حول العالم. يجب أن يكون عنصرها المركزي هذا: لسنا ضحايا التاريخ الفاضلين الدائمين. لسنا مبرمجين على تحمل الشر إلى الأبد ولكن دون أن لا نرتكبه أبدًا. هذه البراءة الزائفة، التي تسود الحياة اليهودية المعاصرة، تمويه الهيمنة على أنها دفاع عن النفس. إنها تعفي اليهود من الحكم الخارجي. إنها تمنح حرية لا نهائية للبشر المعرضين للخطأ.

ما زلت أؤمن باستعارة اليهود كعائلة. لكنها قد أفسدت. لقد حوّل القادة اليهود التزامنا تجاه بعضنا البعض إلى مهدئ أخلاقي. لقد استغلوا تضامننا لتبرير المجاعة والذبح. أخبرونا أن الطريقة لإظهار اهتمامنا بالإسرائيليين الذين تحتجزهم حماس رهائن هي دعم حرب تقتل وتجوع هؤلاء الرهائن أنفسهم، وأن الطريقة لتكريم ذكرى الإسرائيليين الذين قتلتهم حماس هي دعم حرب ستخلق عشرات الآلاف من الشباب الفلسطينيين اليائسين المتلهفين للانتقام لأحبائهم بقتل الإسرائيليين. نحن بحاجة إلى قصة جديدة - قائمة على المساواة مع الفلسطينيين.

إن الرواية المخادعة تعرضنا للخطر. تضرورة السيطرة والسيادة - لأن القصة الحالية لا تعرض الفلسطينيين للخطر فحسب، بل تعرضنا للخطر.

هذا الكتاب لليهود الذين ما زالوا جالسين على مائدة السبت، ولليهود - وأحيانًا أطفالهم - الذين غادروا في اشمئزاز. أتوق إلى أن نجلس معًا. ولكن ليس بهذه الطريقة. ليس كأسياد المنزل.

حاولوا قتلنا، نجونا، هيا نأكل

في كل عام، في عيد المساخر[7]، يرتدي اليهود أزياءً غريبة، ويأكلون معجنات مثلثة الشكل، ويستمعون إلى قصة قديمة عن محاولة إبادة جماعية. هذه القصة مأخوذة من سفر إستير. تبدأ القصة بملك فارسي فاسق. يُقيم وليمة، ويسكر، ويأمر ملكته بـ"إظهار جمالها" للمحتفلين، وعندما ترفض، ينفيها عن العرش. ليخلفها، يختار إستير، وهي فتاة شابة جميلة، كانت يهودية بالسر دون علمه. ثم يتخذ قرارًا كارثيًا بشأن شؤونه الشخصية: يختار هامان، كاره اليهود المَرَضي، ليكون ذراعه اليمنى. يُهيئ المسرح الآن لصدامٍ ملحمي.

يُقنع هامان الملك بتوقيع مرسوم يقضي بإبادة اليهود. يسمع مردخاي، عم إستير، الخبر، فيُرسل إليها رسالةً تُخبره فيها بضرورة إنقاذ شعبها. على الرغم من أن الاحتجاج يُعرّض حياتها للخطر، إلا أن إستير تلجأ إلى الملك، ومن خلال سلسلة مناورات جريئة، تُقلبه ضد هامان. يُشنق هامان. يتولى مردخاي منصبه. ينتصر الخير على الشر.

عندما نروي قصة عيد المساخر اليوم، يتوقف الكثير منا هناك. لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. سفر أستير لا ينتهي بموت هامان، بل يستمر لأنه على الرغم من رحيل هامان، إلا أن أمره بقتل اليهود لا يزال قائمًا. لا يستطيع الملك التراجع عنه. ما يمكنه فعله هو تمكين مردخاي وأقاربه من تولي زمام الأمور بأنفسهم. وهذا ما فعلوه. "ضرب اليهود أعداءهم بالسيف"، كما يقول سفر أستير، "قتلوا ودمروا، وأوقعوا إرادتهم في أعدائهم". في اليوم الثالث عشر من شهر أدار، قتل اليهود خمسة وسبعين ألف شخص. وجعلوا اليوم الرابع عشر "يوم وليمة وفرح". ومع دماء أعدائهم التي بالكاد تجف، يحتفل اليهود ويمرحون. هذا هو أصل عيد المساخر.

لا يتعلق عيد المساخر فقط بالخطر الذي يشكله غير اليهود علينا، بل يتعلق أيضًا بالخطر الذي نشكله نحن عليهم. على مدار معظم تاريخنا، عندما كانت قدرة اليهود على فرض إرادتهم بالسيف ضئيلة، كانت خاتمة سفر إستير خيالًا غير مؤذٍ، بل ومفهومًا. من يستطيع لوم شعبٍ مُعذبٍ على حلمه بعالمٍ مقلوب؟ لكن النهاية تبدو مختلفةً عندما يمارس اليهود سلطة الحياة والموت على ملايين الفلسطينيين الذين يفتقرون حتى إلى جواز سفر.

اليوم، ينبغي أن تُقلقنا هذه الآيات المُلطخة بالدماء. عندما نتلوها بصوتٍ عالٍ في الكنيس، ينبغي أن نستخدم اللحن المُؤلِم والحزين الذي نُنشد به سفر المراثي، الذي يُصوّر تدمير معابدنا القديمة. بدلًا من ذلك، يتجاهل معظمنا العنف الذي يُختتم به سفر إستير. يُبرّره بعض اليهود المعاصرين بأنه دفاع عن النفس. في أقصى اليمين، يستمتع به البعض. لكنهم الاستثناء.

في كثير من الأحيان، نُشيح بنظرنا بعيدًا. نُركز على ما حاولوا فعله بنا. هناك نكتةٌ مفادها أن كل عيدٍ يهودي نفس الحبكة: "حاولوا قتلنا، نجونا، هيا نأكل؟" هكذا يروي الكثير من اليهود، ليس فقط عيد المساخر، بل أيضًا العديد من أعيادنا المفضلة. يروي عيد الفصح قصة تحررنا من العبودية في مصر. يحتفل عيد الحانوكا بالمكابيين، الذين حرروانا من اضطهاد الإمبراطور السوري اليوناني أنطيوخس.

الأعياد التي لا نستطيع إدراجها في هذا السيناريو لا تجذب خيالنا الجماعي. لماذا يُعتبر عيد الشفوعوت[8]، الذي يُخلّد ذكرى نزول التوراة، أقل شهرة بين اليهود المعاصرين من عيدي المساخر والحانوكا[9]، وهما عيدان أقل أهمية دينية؟ هناك أسباب مختلفة: يحب اليهود الأمريكيون عيد الحانوكا لأنه ردّنا على عيد الميلاد؛ يحب اليهود الإسرائيليون عيد الحانوكا لأنهم جعلوه قصةً صهيونيةً بدائيةً عن استعادة السيادة؛ يحب الجميع عيد المساخر لأنه يتضمن أزياءً. ولكن هناك تفسير آخر: لم يعد عيد الشفوعوت يتناسب مع القصة التي نرويها عن أنفسنا. في العصر الحديث، أصبح اليهود أكثر علمانية. باستثناء أقلية ملتزمة دينيًا، لم نعد نصف أنفسنا كشعب اختاره الله لاتباع القوانين المحفورة في سيناء. بل نصف أنفسنا كشعب قدر التاريخ أن يواجه الفناء إلى الأبد، ولكن، بأعجوبة، أن ينجو.

مع هذه العلمانية، جاء التهرب الأخلاقي. عند تفسير معاناة اليهود، يُطالب التقليد الحاخامي اليهود بلا هوادة بالنظر إلى داخلهم ومحاسبة خطاياهم. يُلقي التلمود باللوم على اليهود في صعود هامان لأننا شاركنا في فجور الملك السكير. يُشير مدراش في سفر نشيد الأنشاد إلى أن بني إسرائيل المستعبدين في مصر لم يكونوا جديرين بالحرية لأنهم عبدوا الأصنام. يُخصص التلمود رسالة كاملة تقريبًا لكيفية على اليهود أن يستجيبوا لمحنة الجفاف. جوابه: الصوم، ولتكفير عن أخطائنا.

هذا اللاهوت يصعب هضمه. فعند تطبيقه على الكوارث الحديثة كالهولوكوست، يعتبر معظم اليهود، عن حق، أي تلميح إلى لوم أنفسنا فاحشًا. ولكن في غياب الإيمان بالثواب والعقاب الإلهيين، لم نعد نصارع بنفس الطريقة مع ما تقوله نصوصنا المقدسة عن المسؤولية الأخلاقية اليهودية. في كثير من الأحيان، نحوّلها إلى حكايات عن براءة اليهود.

لقد فقدنا رؤية التعقيد الأخلاقي لأعيادنا. عادةً ما ننهي قصة عيد الحانوكا عندما هزم المكابيون الإغريق وأعادوا تكريس الهيكل. لكن المكابيين لم يختفوا. لقد أصبحوا سلالة الحشمونائيم، التي احتقرها حاخامات التلمود لتكديسها سلطةً مطلقة وتقويضها لسيادة القانون. محم الآن نتجاهل هذا الجزء.

عند سرد قصة عيد الفصح، يُشدد العديد من اليهود الأمريكيين على سمات العيد العالمية المتمثلة في الاستبداد والحرية. نقرّ بأن شعوبًا أخرى عانت من العبودية أيضًا. إلا أن النص التوراتي يحمل رسالةً أكثر تمردًا: ليس فقط أن غير اليهود يمكن أن يُضطهدوا، بل أن اليهود

يمكن أن يكونوا ظالمين. ويلاحظ العلماء المعاصرون انعكاسًا ملحوظًا. ففي لغةٍ تُشبه إلى حدٍّ كبير تلك المستخدمة في سفر الخروج لوصف العبودية المصرية، يصف سفر التكوين كيف استعبد أبوانا إبراهيم وسارة امرأةً تُدعى هاجر، والتي كانت، وفقًا لأحد التقاليد الحاخامية، ابنة فرعون. نادرًا ما تسمع هذا في مآدب عيد الفصح، ولكن وفقًا للكتاب المقدس، كان أجدادنا عبيدًا ومالكي عبيد أيضًا. "حاولوا قتلنا، نجونا، هيا نأكل" ليست القصة كاملة.

من قصص أعيادنا. نجد أنه خيار حول ما نراه وما لا نراه في اليهودية، وفي أنفسنا. إنه يتخيلنا كضحايا فاضلين نجوا من أهوال عظيمة. ثم يُنزل الستار، حتى يبدأ العرض مرة أخرى.

أتفهم قوة هذه الرواية لشعبنا الذي لا يزال يعاني من الندوب. تتبعت جدتي لأمي أصولها إلى شمال شرق إسبانيا، التي طُرد منها اليهود في القرن الخامس عشر. وُلدت والدتها في رودس، وهي جزيرة في البحر الأبيض المتوسط كانت محظوظة بما يكفي لمغادرتها قبل أن يُرحّل النازيون يهودها إلى أوشفيتز. وُلدت جدتي نفسها في مصر لكنها غادرت وهي طفلة مع تنامي معاداة السامية. ذكّرتني بهذه التجارب عندما عبرت عن إيماني بأمريكا. نصحتني بشدة ألا أعتبر سلامة اليهود أمرًا مفروغًا منه.

تُسقط العديد من العائلات اليهودية هذه القصص الشخصية على أعيادنا. عند قراءة اليهود المزراحيين[10] عن بني إسرائيل الذين فروا من مصر الفرعونية دون انتظار حتى تختمر العجينة، يتذكرون أحيانًا رحيل أجدادهم المتسرع من المغرب واليمن والعراق في أواخر أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي. نشأ العديد من اليهود الأشكناز على ذكريات الفراعنة المتأخرين، وأنطيوخس، وهامان، الذين أراقوا دماء اليهود كالماء في القرنين التاسع عشر والعشرين في الأراضي الواقعة بين البحر الأسود وبحر البلطيق. لدى بعضهم أقارب أكبر سنًا رددوا لازمة الهاجاداه الشهيرة: "كنا عبيدًا لفرعون في مصر، والآن نحن أحرار"، في أول عيد فصح بعد تحررهم من بيرغن بيلسن أو مايدانيك. هذا ليس تاريخًا قديمًا. ففي حياة بعض اليهود الأكبر سنًا، أُبيدت يهود أوروبا إلى حد كبير. ولا يزال عدد اليهود الأحياء اليوم أقل مما كان عليه عام 1939.

ليس من المستغرب إذن أن نشعر غالبًا أن دور الضحية هو دورنا الطبيعي. ولكنه أيضًا زيٌّ يفرضه علينا مجتمعنا ويُعيد تصميمه بما يتناسب مع متطلبات اللحظة. إنه يستحضر شيئًا مألوفًا بينما يُخفي شيئًا مُقلقًا، شيئًا تعرفه تقاليدنا: أن اليهود يُمكن أن يكونوا فراعنة أيضًا.

تسود هذه الرؤية الانتقائية الحياة اليهودية المعاصرة. تأملوا الطريقة التي تستشهد بها الجماعات اليهودية المُؤسسة بالكتاب المقدس لإثبات علاقة الشعب اليهودي بأرض إسرائيل. في فبراير 2024، انطلقت اللجنة اليهودية الأمريكية لدحض الادعاء القائل بأن إسرائيل دولة استعمارية استيطانية. ولإثبات الصلة اليهودية بالأرض، استشهدت بسفر التكوين، الذي - كما تصفه اللجنة - "وعد الله إبراهيم، أول يهودي، بأرض إسرائيل". ثم ينتقل إلى سفر الخروج، حيث "يُخرج موسى نخب إسرائيل من العبودية والقمع في مصر بوعدٍ بإعادتهم

إلى أرض إسرائيل، أرض آبائهم". ثم ينتقل إلى "سفري القضاة والملوك"، اللذين "يرويان قصص الحكام اليهود على أرض إسرائيل."

سيلاحظ المطلعون على الكتاب المقدس العبري إغفالاً واضحاً: سفر يشوع، الذي يشرح كيف أصبح هؤلاء الحكام اليهود حكاماً في المقام الأول. ووفقاً للنص، غزا بنو إسرائيل بقيادة يشوع بن نون أرض كنعان من بين الأمم السبع التي كانت تسكنها. ويتجاهل التسلسل الزمني للجنة اليهودية الأمريكية ذلك.

قد يتساءل المرء: من يهتم؟ الكتاب المقدس وثيقة دينية، وليست تاريخية. لا أحد يعلم ما إذا كان يشوع بن نون قد غزا هذه الأرض بالفعل أو كان موجوداً أصلاً. وسواء فعل أم لا، فهذا لا يُغير الحقيقة. أن لليهود صلة روحية قديمة وعميقة بهذه البقعة من الأرض.

فلماذا إذًا تتجاهل اللجنة اليهودية الأمريكية رواية الكتاب المقدس عن غزو يشوع؟ لأنها تتناقض مع سردنا المعاصر عن الضحية. الفتوحات الوحيدة التي تعترف بها المنظمة هي تلك التي تأتي على حساب اليهود. تُعلن اللجنة اليهودية الأمريكية: "الشعب اليهودي من السكان الأصليين لأرض إسرائيل، وقد حقق تقرير مصيره هناك لأول مرة منذ 3000 عام"، دون أن تُفسر أبدًا كيف نشأ هذا "تقرير المصير". ثم "طرد الرومان غالبية اليهود عام 70 ميلادية."

بالنسبة لجماعات مثل اللجنة اليهودية الأمريكية، التي تريد إثبات أن الصهيونية ليست حركة استعمارية، فإن سفر يشوع غير ملائم لأنه، في نظر المعاصرين، يبدو استعماريًا تمامًا. ولكن هذا أحد أسباب إعجاب الصهاينة الأوائل به. في مقاله عام 1923 بعنوان "الجدار الحديدي"، صرّح فلاديمير جابوتنسكي، الأب الأيديولوجي لحزب الليكود بزعامة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، بأنه عند الاستيلاء على كنعان، "تصرف أسلافنا بقيادة يشوع بن نون كقطاع طرق". لم يقصد بذلك نقدًا. ففي عام 1948، أطلق جيش الدفاع الإسرائيلي المُشكّل حديثًا على إحدى معاركه الرئيسية في حرب الاستقلال الإسرائيلية اسم "عملية بن نون". وكان ديفيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، مهووسًا بالفاتح التوراتي. وفي عام 1958، استضاف مجموعة دراسية تُعقد كل شهرين حول سفر يشوع، ودعا إليها شخصيات بارزة من الدولة الفتية.

تبنى الصهاينة الأوائل قصة غزو يشوع لأنهم عاشوا في عصر استعمار لم يكن فيه الأصلانية ورقة رابحة. إذا كنت ترغب في الأرض، وتعتقد أنك تنحدر من حضارة أكثر تقدمًا، وبالتالي يمكنك زراعتها بشكل أفضل من السكان الأصليين، فهذا مبرر كافٍ. في عام 1902، كتب ثيودور هرتزل، مؤسس الصهيونية السياسية، إلى سيسيل رودس، المستعمر الأكبر في جنوب أفريقيا، وحثه على دعم الصهيونية "لأنها مشروع استعماري". في كتابه "الجدار الحديدي"،

وصف جابوتنسكي عرب فلسطين الانتدابية بـ"الأصليين"، وقارنهم بهنود السيوكس. كما وصف زملاءه الصهاينة بـ"المستعمرين"، الذين يشبهون الآباء الحجاج ويشوع بن نون.

اليوم، فقد هذا الخطاب شعبيته. لذا، بينما لا يزال بعض الصهاينة اليمينيين يحتفلون بالغزو الديني المُقدّس لبني إسرائيل القدماء، فإن القصة اليهودية السائدة اليوم - تلك التي ترويها المنظمات اليهودية الأمريكية السائدة والحكومة الإسرائيلية، وخاصةً عند التحدث باللغة الإنجليزية - تستبدل الاستعمار الفاضل بضحية فاضلة. لم يعد الصهاينة يُعادلون الحجاج الذين نزلوا على شاطئ بليموث روك. في مقابلة عام 2019، قارن السفير الإسرائيلي السابق لدى الولايات المتحدة مايكل أورين اليهود الإسرائيليين بقبائل السيوكس.

يميل اليهود اليوم إلى صرف أنظارنا عن كيفية فوزنا بالأرض والتركيز بدلاً من ذلك على كيفية خسارتنا لها. تُلقي اللجنة اليهودية الأمريكية اللوم على الإمبراطورية الرومانية، التي تزعم أنها طردت معظم اليهود في عام 70 ميلادي. في كتابه الصادر عام 1993، "مكان بين الأمم"، يضيف نتنياهو مُتهمًا: العرب. نعم، لقد ساهمت روما في "تراجع القوة والوجود اليهودي في فلسطين"، كما يُقرّ. لكن الضربة القاضية جاءت بعد ستمائة عام عندما وصل "سيلٌ متواصلٌ من المستعمرين" من شبه الجزيرة العربية، و"نجحوا أخيرًا في تحقيق ما عجزت روما عن تحقيقه: اقتلاع المزارع اليهودي من أرضه". في رواية نتنياهو، أصبح العرب بمثابة آباء الحجاج.

كان يهود العصور القديمة هم السيوكس، الذين "قاوموا الغزو والاحتلال والنفي لما يقرب من عشرين قرنًا"، حتى هُزموا في النهاية.

قد يظن المرء أنه عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، سنتجاهل سردية الضحية هذه. ففي نهاية المطاف، يتمثل الوعد الجوهري للصهيونية في ضمان ألا يصبح اليهود عاجزين مرة أخرى. وكثيرًا ما يجادل المعلقون الإسرائيليون بأن رفض أن يكونوا ضحايا هو جوهر الهوية الإسرائيلية.

ولكن بينما لا يصور الإسرائيليون ويهود الشتات إسرائيل على أنها عاجزة، فإننا غالبًا ما نصورها على أنها مضطهدة - "يهودي الأمم"، على حد تعبير يهودي مؤسسي شائع - مُفترى عليها، ومُهددة، ومُنزعة الشرعية عنها أكثر من أي دولة أخرى على وجه الأرض. وقد أشار المؤرخ ديريك بنسلار إلى أن "دولة إسرائيل، التي أمل مؤسسوها أن تكون مختلفة جوهريًا عن الشتات، تُعتبر الآن امتدادًا لها - لا أقل تهديدًا، ولا أقل تشويهًا ظلمًا". هذا النموذج - إسرائيل كهدف دائم للعدوان، وليس مؤلفه أبدًا - يُؤطّر رواية المؤسسة اليهودية للتاريخ الإسرائيلي. تأملوا في روايتها لرحيل أكثر من نصف السكان العرب من فلسطين الانتدابية البريطانية خلال حرب الاستقلال الإسرائيلية. توضح رابطة مكافحة التشهير(ADL)، أشهر منظمة أمريكية لمكافحة معاداة السامية، قائلةً: "نشأت قضية اللاجئين الفلسطينيين في حرب عام 1948 العربية الإسرائيلية، عندما غزت خمسة جيوش عربية دولة إسرائيل بعد ساعات قليلة من تأسيسها". المسؤولية الأخلاقية واضحة: غادر

الفلسطينيون ديارهم لأن الدول العربية بدأت حربًا. عانى الفلسطينيون، ولكن فقط لأن إسرائيل تعرضت للهجوم.

مشكلة هذا التسلسل الزمني هي أن ما بين ثلث ونصف الفلسطينيين غادروا قبل 14 مايو عام 1948، عندما أعلنت إسرائيل استقلالها وأعلنت الجيوش العربية الحرب. وبحلول الوقت الذي هاجمت فيه الجيوش العربية، كانت القوات الصهيونية قد أخلت معظم سكان يافا وحيفا، أكبر مدينتين في فلسطين. وفي أبريل، وقعت أشهر مذبحة فلسطينية خلال الحرب، حيث قتلت الميليشيات الصهيونية أكثر من مئة رجل وامرأة وطفل في قرية دير ياسين. وعندما يزعم القادة اليهود أن الغزوات العربية دفعت الفلسطينيين إلى الرحيل، فإنهم ينقلبون على السببية. وخلص المؤرخ وليد الخالدي، بعد مراجعة وثائق حكومية عربية وتقارير صحفية موسعة، إلى القول: "لم يكن دخول الجيوش العربية هو سبب الخروج، بل كان الخروج هو سبب دخول الجيوش العربية."

بالنسبة لمؤسسة يهودية مصممة على تصوير إسرائيل على أنها "يهودية الأمم"، وملامة إلى الأبد على خطايا لم ترتكبها، فإن هذه النتائج التاريخية غير ملائمة. لكن المسؤولين اليهود الإسرائيليين والأمريكيين يقدمون حجة أخرى تُفسر لماذا تُلام الحكومات العربية، وليس إسرائيل، على رحيل ما يقرب من ثلاثة أرباع مليون فلسطيني من منازلهم: الأنظمة العربية طلبت من الفلسطينيين المغادرة. في كتاب "مكان بين الأمم"، يجادل نتنياهو بأنه في كثير من الحالات "توسل اليهود إلى جيرانهم العرب الفلسطينيين للبقاء. وكان هذا يتناقض تمامًا مع التوجيهات التي كان العرب الفلسطينيون يتلقونها من الحكومات العربية والجيوش الغازية". هذه الحجة أيضًا، في معظمها، خيالية. فقد خلص تقرير صادر عن جهاز المخابرات الإسرائيلي عام 1948 إلى أن الهجمات الصهيونية شكلت ما يقرب من 70% من حالات مغادرة الفلسطينيين، بينما شكلت أوامر القوات العربية ما يقرب من 5 في المائة.

وعلى الرغم من ذلك، لا يزال المسؤولون اليهود في المجتمعات المحلية يصرون في كثير من الأحيان على أن العرب، وليس الصهاينة، هم من أجبروا الفلسطينيين على الرحيل. كما أنهم لا يتعاملون مع حقيقة أخيرة مزعجة: حتى لو غادر الفلسطينيون لأن الجيوش العربية هاجمتهم، أو لأن الحكومات العربية حثتهم على ذلك، فإن إسرائيل لم تسمح لهم بالعودة.

والحقيقة القاسية هي أن القوات الصهيونية اضطرت إلى طرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين من أجل إنشاء دولة ذات أغلبية يهودية. كان عدد السكان الفلسطينيين قبل الحرب كبيرًا للغاية. في نوفمبر 1947، عندما صوتت الأمم المتحدة على تقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية، كان اليهود يشكلون ثلث السكان فقط. وهكذا، فإن الدولة المخصصة لليهود - والتي كانت ستشمل 55 في المائة من فلسطين الانتدابية - كانت ستكون نصفها تقريبًا فلسطينية. وبما أن اليهود كانوا يعيشون في الغالب في المناطق الحضرية، فقد امتلك الفلسطينيون أيضًا 80 في المائة من الأراضي الصالحة للزراعة في الدولة اليهودية.

أدرك القادة الصهاينة أن دولةً يُشكل فيها الفلسطينيون نصف سكانها تقريبًا ويمتلكون معظم أراضيها لن تُشكل دولةً يهودية حقيقية. لن يحكمها اليهود. بعد شهر من تصويت الأمم المتحدة، قال بن غوريون لأعضاء حزبه السياسي: "الدولة التي لا تقل فيها نسبة اليهود عن 80% هي الدولة القابلة للحياة والمستقرة". لذا، بينما قبل بن غوريون والقيادة الصهيونية - على عكس نظرائهم الفلسطينيين والعرب - خطة التقسيم التي وضعتها الأمم المتحدة، بدأوا أيضًا بطرد الفلسطينيين لأن ذلك كان السبيل الوحيد لخلق أغلبية يهودية كبيرة تحتل معظم الأرض.

في هذه النقطة، كان بيني موريس، المؤرخ الإسرائيلي الذي اشتهر بأبحاثه حول الهجرة الفلسطينية، صريحًا على نحو غير معتاد. قال موريس للصحفي الإسرائيلي آري شافيت في مقابلة عام 2004: "كان بن غوريون مؤيدًا للترانسفير. لقد أدرك أنه لا يمكن قيام دولة يهودية بوجود أقلية عربية كبيرة ومعادية في وسطها". ربما دهش شافيت من صراحة موريس، فلاحظ: "لا أسمعك تدينه". في الواقع، لم يكن موريس كذلك. وتابع موريس: "كان بن غوريون محقًا. لو لم يفعل ما فعله، لما وُجدت الدولة. يجب أن يكون هذا واضحًا. من المستحيل التهرب."

ولكن من الممكن التهرب. يُعد موريس، من بين أبرز المدافعين عن الدولة اليهودية الناطقين باللغة الإنجليزية، حالة شاذة، تُذكر بالصهاينة الأوائل الذين دافعوا بصراحة عن الغزو الصهيوني. لهذا السبب لن تجده في دائرة محاضرات رابطة مكافحة التشهير أو لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (AIPAC). سردهم مبني على التهرب، لأنهم يعلمون أنه من غير الممكن، في عصر ما بعد الاستعمار، الاعتراف بالحقيقة وراء لجوء الفلسطينيين دون إثارة تساؤلات حول سبب عدم قدرتهم هم وذريتهم على العودة. كتب جورج أورويل الشهير أنه بما أن الدفاع الصريح عن عمليات التطهير الستالينية أو الاستعمار البريطاني في الهند يتطلب "حججًا قاسية جدًا على معظم الناس لمواجهتها"، فإن تبريرهم العلني "يتألف في معظمه من الكنايات والتسول والغموض المحض". هذا يُجسد تمامًا الخطاب اليهودي المؤسس حول عام 1948. الطريقة الوحيدة لتصوير إسرائيل كضحية لطردها الجماعي للفلسطينيين هي التهرب مما عاناه الفلسطينيون بالفعل. الكنايات هي جوهر الموضوع.

تخيلوا كيف يبدو التهجير الفلسطيني عند سرده دون كناية. وسط تدافع الناس الفارين من حيفا إثر هجوم القوات الصهيونية، سارت امرأة تُدعى نظمية الكيلاني بساق مكسورة، تحمل طفلاً بين ذراعيها وآخر مربوطاً بمئزرها حتى لا يبتلعه الحشد، إلى ميناء المدينة، حيث استقلت قارباً متجهاً إلى عكا، التي كانت هي الأخرى خالية من السكان بعد أن قطعت القوات الصهيونية الكهرباء والماء عن المدينة. في خضم الفوضى، فقدت الاتصال بزوجها ووالدها وشقيقها وأخواتها، الذين رُحِّلوا جميعاً إلى سوريا. لم ترهم لمدة خمسين عاماً أخرى.

في ذلك الخريف، دخلت القوات الإسرائيلية قرية عيلبون الفلسطينية ذات الأغلبية الكاثوليكية والأرثوذكسية اليونانية في الجليل. ووفقاً للمخرج هشام زريق، الذي استخدم الروايات

الشفوية والوثائق الإسرائيلية وتقرير مراقب الأمم المتحدة لإعادة بناء الأحداث، فقد استقبل الجنود كهنة يحملون راية بيضاء. ردّ جنود من لواء غولاني بتجميع القرويين في ساحة البلدة. أجبروا غالبية سكان عيلبون على إخلاء القرية والتوجه شمالاً، ليكونوا دروعاً بشرية للقوات الإسرائيلية التي كانت تتبعهم، في حال كان الطريق ملغوماً. بعد إجبار القرويين على المشي طوال اليوم بقليل من الطعام أو الماء، سلب الجنود مقتنياتهم الثمينة وحمّلوها في شاحنات نقلتها عبر الحدود اللبنانية. ووفقاً لشاهد عيان، أُعدم حوالي اثني عشر رجلاً احتُجزوا في ساحة البلدة في مجموعات من ثلاثة أشخاص.

كان أهالي عيلبون محظوظين نسبياً: فقد سُمح لبعضهم بالعودة. خلال حرب الاستقلال الإسرائيلية، أخلت القوات الصهيونية حوالي أربعمائة قرية فلسطينية. نُهبت العديد منها، ودُمر معظمها بالكامل.

استمع إلى كل خطاب من خطابات بنيامين نتنياهو حول إنشاء إسرائيل، وخطابات كل زعيم يهودي أمريكي مؤسس، ولن تسمع قصة واحدة مثل قصة نظمية الكيلاني. لن تتعلم اسم، أو تُدعى لتخيل تجربة، فلسطيني واحد طردته القوات الصهيونية. هذا ليس صدفة. فقط من خلال محو أسماء وتجارب الفلسطينيين العاديين يمكن أن يصبحوا مؤلفي طردهم. نحن نتهرب من الحقائق القاسية لعام 1948 تمامًا كما نتهرب من نهاية سفر أستير. بهذه الطريقة، يتم جعل إنشاء إسرائيل يتناسب مع السيناريو.

هذه ليست فقط القصة التي نرويها لأنفسنا عن ماضي إسرائيل. إنها أيضًا قصتنا عن حاضر إسرائيل. تسير الحبكة على هذا النحو. لقد حققنا أخيرًا ما يعتبره كل شعب آخر أمرًا مسلمًا به: دولة خاصة بنا. ومع ذلك، في حالة اليهود، واليهود وحدهم، فإن هذا الحق محل نزاع. لذا، حتى مع وجود دولة، نبقى ضحايا. يُطلق قادتنا الطائفيون على هذا الحق "حق تقرير المصير". وقد أكد جوناثان غرينبلات، الرئيس التنفيذي لرابطة مكافحة التشهير، عام 2020، أن "حرمان الشعب اليهودي من حق تقرير المصير نفسه الذي تمنحه للآخرين"، يُشكل أحد "المظاهر الحديثة لأقدم أشكال الكراهية، معاداة السامية". لكن تقرير المصير يعني تقرير الذات، وليس الآخرين. فكما لا يمكن لشخص واحد أن يتذرع بحقه الفردي في تقرير المصير للسيطرة على شخص آخر، لا يمكن لمجموعة من الناس أن تتذرع بحقها الجماعي للسيطرة على مجموعة أخرى. وكما أوضح الفيلسوفان الإسرائيليان أفيشاي مارغاليت وجوزيف راز، "لا يمكن لمن قد يؤيدون الحكومة الإصرار عليها بأي ثمن. يجب مراعاة مصالحهم مع مصالح الآخرين".

لهذا السبب لم يُعجب العالم بادعاء وزير الدفاع الجنوب أفريقي بي. دبليو. بوتا، عام 1977، بأنه يدافع عن "حق تقرير المصير للأمة البيضاء". لأنه لم يكن يدافع عن تقرير المصير، بل عن السيادة. عندما يقول القادة اليهود إن تقرير المصير حق عالمي، فإنهم يستخدمون حيلة. قد يكون تقرير المصير حقًا عالميًا إذا كان يعني استقلالًا جماعيًا. قليلون هم من

سيعترضون على مدرسة في بلدة ذات أغلبية أفريكانية (أصولهم من افريقيا: أفارقة) تُدرّس الأطفال باللغة الأفريكانية، طالما أن البيض والسود في جنوب أفريقيا يعيشون في ظل القانون نفسه. لكن لا يوجد حق عالمي في دولة تحكم فيها قبيلتك الجميع.

ومع ذلك، في إسرائيل، هذا ما يفعله اليهود. تسيطر إسرائيل على جميع الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط. يتضمن ذلك الضفة الغربية، حيث على الرغم من أن إسرائيل قد أسندت منذ عام 1993 بعض الوظائف إلى السلطة الفلسطينية، فإن الجنود الإسرائيليين -وليس جنود أي جيش آخر- يمكنهم دخول أي شبر مربع من الأرض في أي وقت يريدون واعتقال أي شخص يريدونه، بما في ذلك مسؤولي السلطة الفلسطينية أنفسهم.

تسيطر إسرائيل أيضًا على قطاع غزة، على الرغم من أنها سحبت جنودها ومستوطنيها في عام 2005 (قبل إعادة غزوها بعد 7 أكتوبر). تسيطر إسرائيل على غزة لأنها تسيطر على جميع سبل الوصول إلى القطاع عن طريق الجو والبحر بالإضافة إلى اثنين من المعابر البرية الثلاثة. (حتى في المعبر الثالث، رفح، الذي يحد مصر، تمارس إسرائيل سلطة كبيرة على من وماذا يمكنه المرور بشكل قانوني).

وكما لاحظت منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية غيشا، فإن إسرائيل تسيطر حتى على نوع الخضراوات التي يمكن للفلسطينيين في غزة تصديرها بشكل قانوني. قبل الحرب الحالية، حاولت إسرائيل السيطرة على غزة بالطريقة التي يسيطر بها الحراس على سجن إذا غادروا الداخل واصطفوا على طول المحيط، وبالتالي يحددون - تحت تهديد السلاح - ما يُسمح بدخوله وخروجه.

يعيش داخل هذه الأراضي التي تسيطر عليها إسرائيل أكثر من سبعة ملايين فلسطيني. حوالي 70% منهم - سكان الضفة الغربية وغزة - ليسوا حتى مواطنين في الدولة التي تُسيطر على حياتهم. أما الـ 30% الآخرون، والذين يُطلق عليهم أحيانًا عرب إسرائيل، فيتمتعون بجنسية، ولكنها من الدرجة الثانية تمامًا.

يمكنهم التصويت والانضمام إلى البرلمان، لكنهم يلتحقون بمدارس منفصلة، ولا يُسمح لهم بالزواج من يهود داخل إسرائيل، إذ لا يوجد زواج مدني في إسرائيل. كما تُسيء إسرائيل بشكل كبير إلى المواطنين الفلسطينيين في توزيع أراضيهم.

تُدير سلطة أراضي إسرائيل أكثر من 90% من أراضي إسرائيل، والتي تُخصص ما يقرب من نصف مقاعد هيئتها الإدارية للصندوق القومي اليهودي، وهو كيان صرَّح صراحةً بأنه "لا ولاء له للشعب الإسرائيلي، بل ولاءه للشعب اليهودي".

يبدو الأمر كما لو أن معظم أراضي أمريكا تخضع لإشراف مؤسسة يسيطر عليها إلى حد كبير مسيحيون يريدون تطويرها للاستخدام المسيحي فقط. يساعد هذا في تفسير سبب الاكتظاظ الشديد في المدن والبلدات التي يعيش فيها معظم المواطنين الفلسطينيين. ووفقًا

لتقرير صادر عن معهد الديمقراطية الإسرائيلي عام 2013، فإن متوسط مساحة الأراضي للفرد في البلدية ذات الأغلبية الفلسطينية يبلغ حوالي سدس مساحة نظيرتها اليهودية.

احضر منتدى حول إسرائيل في معظم المعابد اليهودية الأمريكية أو استمع إلى مقابلة تلفزيونية مع مسؤول إسرائيلي، ومن غير المرجح أن تسمع عن قانون الأراضي الإسرائيلي أو الأنظمة القانونية المنفصلة التي تحكم المواطنين اليهود والفلسطينيين غير المواطنين في الضفة الغربية، أو القواعد التي تحدد متى يمكن للفلسطينيين مغادرة قطاع غزة. هذا ليس مصادفة. بل لأن أي تحقيق جدي في حياة الفلسطينيين تحت السيطرة الإسرائيلية من شأنه أن يكشف ازدواجية الادعاء بأن إسرائيل تمنح اليهود مجرد "حق تقرير المصير".

عندما تحرم دولة يهودية معظم سكانها الفلسطينيين من الجنسية وتحرمهم جميعًا من المساواة القانونية، فإنها لا تمنح اليهود حق تقرير مصيرهم فحسب، بل تمنحهم أيضًا هيمنة على شعب آخر.

وبموجب القانون الدولي، هناك مصطلح يُشير إلى الهيمنة القانونية القائمة على العرق أو الدين أو العرق - وهي كلمة تُشير إليها هيومن رايتس ووتش ومنظمة العفو الدولية، وحتى منظمة بتسيلم، وهي منظمة حقوق الإنسان الرائدة في إسرائيل، بأنها تنطبق على إسرائيل. إنها ليست "تقرير المصير"، بل هي "فصل عنصري". الفصل العنصري عنيف.

ولأن الفلسطينيين في غزة يعيشون تحت سيطرة دولة غير مسؤولة أمامهم - لا يمكنهم الحصول على جنسيتها ولا اختيار قادتها - فقد أمضى معظمهم معظم حياتهم تحت الحصار، غير قادرين على مغادرة منطقة تقل مساحتها عن نصف مساحة مدينة نيويورك، وتصفها هيومن رايتس ووتش بـ"السجن المفتوح".

ولأن الفلسطينيين في الضفة الغربية يعيشون تحت سيطرة دولة غير مسؤولة أمامهم، فإن السلطات الإسرائيلية تسجن أطفالهم بشكل روتيني. بين عامي 2000 و2023، اعتقلت إسرائيل أكثر من 13,000 طفل فلسطيني، وفقًا لتقديرات الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال - فلسطين. ومن بين 766 طفلًا في الضفة الغربية قابلتهم الحركة، وجدت أن 97% منهم خضعوا للاستجواب دون حضور أحد أفراد أسرهم، و75% تعرضوا للعنف الجسدي، و23% احتُجزوا لمدة يومين على الأقل في الحبس الانفرادي.

ولا ينجو المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل من العنف المصاحب للدونية بموجب القانون. فبسبب عقود من مصادرة الأراضي وسياسات التخطيط التمييزية، لا يملكون خيارًا سوى البناء بشكل غير قانوني. وهذا يعني أن منازلهم غالبًا ما تُهدم بالجرافات.

في عام 2018، وهو آخر عام تتوفر عنه بيانات، تلقى الفلسطينيون الإسرائيليون أكثر من 88% من أوامر الهدم الصادرة داخل إسرائيل. هذا الرقم لا يشمل حتى العديد من البدو في صحراء النقب، الذين تعتبرهم الدولة "مستوطنين" غير شرعيين على أراضيهم. في عام

2018، هدمت إسرائيل أكثر من سبعة عشر ضعفًا من المباني البدوية التي هدمت في بقية أنحاء البلاد (باستثناء الضفة الغربية والقدس الشرقية).

منذ عام 2010، هُدمت قرية العراقيب البدوية أكثر من مئتي مرة. نادرًا ما يعترف الخطاب اليهودي السائد بالعنف الكامن في عدم المساواة المُقننة. بل يفعل العكس: يصف احتمال المساواة أمام القانون بأنه عنيف، بل وإبادة جماعية.

في عام 2018، اقترح ثلاثة أعضاء فلسطينيين في الكنيست الإسرائيلي "قانونًا أساسيًا" - قانونًا ذا وزن دستوري - لترسيخ "مبدأ المواطنة المتساوية لكل مواطن" ومنع "التمييز على أساس الجنسية أو العرق أو الدين أو الجنس أو اللغة أو اللون أو التوجه السياسي أو الأصل العرقي أو الوضع الاجتماعي".

ورفض رئيس الكنيست الإسرائيلي، المنتمي لحزب الليكود بزعامة نتنياهو، حتى مناقشته لأنه "سيُقوّض أسس الدولة". ومثل هؤلاء البرلمانيين الفلسطينيين، تدعو المنظمات الوطنية المناهضة للصهيونية ذات النفوذ الأكبر في الجامعات الأمريكية صراحةً إلى المساواة. ومع ذلك، يقول نتنياهو إنها ترغب في "إبادة" إسرائيل. إن اختيار كلمة "إبادة" ليس صدفة، بل هو مُصمّم لربط المساواة الفلسطينية باليهودية.

هذا أيضًا ما تحمله عبارة "الحق في الوجود؟". إنها توحي بأنه إذا لم تكن السيادة اليهودية قائمة، فلن يكون يهود إسرائيل كذلك. يستخدم المسؤولون اليهود عبارة "الحق في الوجود" - مثل "تقرير المصير" - للإيحاء بأن العالم ينكر على إسرائيل الشرعية التي تمنحها لجميع الدول الأخرى. صرّح ديفيد هاريس، الرئيس التنفيذي للجنة اليهودية الأمريكية آنذاك، عام 2020: "إسرائيل هي الدولة العضو الوحيدة في الأمم المتحدة التي يتعرض حقها في الوجود لتحدٍّ مستمر".

في عام 2022، ادعى المؤتمر اليهودي العالمي أنه "لا يُشكك في وجود أي دولة أخرى" سوى إسرائيل. لكن عبارة "الحق في الوجود" تدمج شيئين مختلفين تمامًا: الدولة ونظامها السياسي. عرّف ماكس فيبر الدولة على أنها كيان في منطقة معينة يمتلك "احتكارًا للعنف الجسدي المشروع". باستثناء قلة من الفوضويين، لا أحد يتساءل عما إذا كان ينبغي وجود دولة - أو ربما دولتين - بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط.

ما يشككون فيه هو نظام سياسي تعتبره أبرز منظمات حقوق الإنسان في العالم نظام فصل عنصري. هذا لا يُخص إسرائيل بحصرها. يتحدى الأمريكيون شرعية الأنظمة السياسية الأجنبية طوال الوقت. بينما يشكك الطلاب النشطاء في التفوق اليهودي في إسرائيل، يتساءل أعضاء الكونغرس عما إذا كان ينبغي للأحزاب الشيوعية إدارة الصين وكوبا وكوريا الشمالية، وما إذا كان ينبغي للمجلس العسكري إدارة ميانمار، وما إذا كان ينبغي لرجال الدين المستبدين إدارة إيران، وما إذا كان ينبغي لنظام ديكتاتوري شخصي إدارة روسيا، وما إذا كان ينبغي لأمير قاتل إدارة المملكة العربية السعودية. غالبًا ما يعاقبون الأنظمة السياسية

التي لا تعجبهم بفرض عقوبات - وهو الإجراء ذاته الذي يقترح المتظاهرون في الحرم الجامعي اتخاذه ضد إسرائيل.

أحد أسباب الخلط بين إسرائيل كدولة والتفوق اليهودي كنظام سياسي هو أن اسم إسرائيل نفسه يوحي بالتفوق اليهودي. فـ"إسرائيل" ليست مجرد اسم دولة، بل هي أيضًا اسم الشعب اليهودي، وبالتالي فهي تُشير إلى نظام سياسي بُني لليهود، وليس لكل من يعيش على أرضهم. هذه بالتأكيد هي نظرة معظم اليهود الإسرائيليين. ففي استطلاع رأي أجراه معهد سياسة الشعب اليهودي عام 2019، وافق 75٪ منهم على عبارة "لكي تكون إسرائيليًا حقيقيًا، يجب أن تكون يهوديًا."

وفي هذا الصدد، تختلف إسرائيل عن جنوب إفريقيا، التي لا تحمل أي دلالات عرقية أو دينية أو عنصرية، ولذلك بقيت على حالها بعد سقوط نظام الفصل العنصري. إنها أشبه بجمهورية الصين الشعبية، التي تشير إلى سيطرة الحزب الشيوعي، أو جمهورية إيران الإسلامية، التي تشير إلى حكم رجال الدين. لو أصبحت إسرائيل دولة قائمة على المساواة القانونية، كما اقترح أعضاء الكنيست الفلسطينيون، فقد يصبح اسمها "إسرائيل-فلسطين" أو "فلسطين-إسرائيل" أو ربما اسمًا آخر لا يوحي بتفوق أي مجموعة.

لكن هذا التغيير لن يكون غير مسبوق. فعندما تخلت روديسيا - التي سُميت تيمنًا بالإمبريالي البريطاني سيسيل رودس - عن الحكم الأبيض، غيّرت اسمها إلى زيمبابوي. وعندما تخلت ألبانيا وأنغولا وبنين وبلغاريا ومنغوليا والعديد من الدول الأخرى عن أنظمتها السياسية الشيوعية في أوائل التسعينيات، حذفت اسم "جمهورية الشعب" من أسمائها الرسمية. إذا كان النقاد يتخيلون إعادة تسمية إسرائيل لأن اسمها يوحي بنظام سياسي عنصري، فهذا ليس فريدًا. إسرائيل ليست مُستهدفة. إنها ليست ضحية.

لا يعني أي من هذا أن اليهود لا يمكن أن يكونوا ضحايا. بالطبع يمكننا ذلك. لقد كان اليهود ضحايا لبعض أسوأ الفظائع في التاريخ. لا يزال هذا التاريخ عميقًا في أذهان الكثيرين منا. لقد تجولت في المنطقة في شمال ليتوانيا حيث ولدت جدتي لأبي، وعبر الغابات حيث قُتل يهودها. لقد أقمتُ قداس السبت في رودس، في كنيس يهودي من القرن السادس عشر لا يجمع المينيان إلا عندما تعود بقايا ذلك المجتمع الممزق من أقاصي العالم. لدى العديد من اليهود تجارب مثل هذه.

إن المشكلة في قصتنا الجماعية ليست أنها تعترف بالجرائم التي عانينا منها. المشكلة هي أنها تتجاهل الجرائم التي نرتكبها. نحن أستير إلى الأبد ومنتقدونا هم هامان إلى الأبد، حتى عندما تستعبد دولة يهودية مسلحة نوويًا ملايين الفلسطينيين الذين يفتقرون إلى الجنسية في البلد الذي سكنوه طوال حياتهم. من خلال رؤية دولة يهودية على أنها مُساء إليها إلى الأبد، وليست المُسيئة للأبدًا، فإننا ننكر قدرتها على الشر. قبل السابع من أكتوبر، ظننتُ أنني أدرك مخاطر هذا التفكير. لكن اتضح أنني لم أكن أعرف شيئًا.

لمن يُصيب

كانت الحياة في التجمعات اليهودية قرب غزة صعبة حتى قبل السابع من أكتوبر. ليليا آن - لم تُفصح علنًا عن اسم عائلتها - فتاة نحيفة في السادسة والعشرين من عمرها، بشعر بني أملس ووشم على ذراعيها وعنقها، في سديروت، على بُعد أقل من ميل من حدود غزة. نشأت على الحدود، تسمع صفارات الإنذار. لم تكن تستطيع دائمًا الوصول إلى ملجأ في الثواني العشر التي تسبق سقوط الصواريخ. سقط العديد منها بالقرب منها. في الرابعة من عمرها، بدأت تعاني من نوبات هلع.

في السابع من أكتوبر، أسقط مقاتلو حماس أحد أعمدة الكهرباء في سديروت. في المنزل مع عائلتها، والأبواب مغلقة والستائر مسدلة، قضت ليليا آن الليلة في ظلام دامس. مع دوي الانفجارات في الخارج، أصيبت بأسوأ نوبة هلع في حياتها. لحسن الحظ، لم يدخل المقاتلون منزلها أبدًا، وهربت من سديروت في صباح اليوم التالي.

كانت من المحظوظين. في صباح السابع من أكتوبر/تشرين الأول، اتصلت ليزا عيدان بكنّتها، سمادار، في كيبوتس كفار عزة، الواقع على بُعد ثلاثة أميال من غزة. ردّت حفيدتها، أماليا، البالغة من العمر ست سنوات، على الهاتف قائلةً إن والديها وشقيقتها الصغرى، أفيجيل، قد لقوا حتفهم. سألتها ليزا إن كانت تشاهد فيلمًا رعبًا. كررت أماليا: "أمي، أبي، وأفيجيل ماتوا"، وأغلقت الهاتف.

في وقت سابق من ذلك الصباح، دخل مقاتل من حماس منزل أماليا وقتل والدتها. وسرعان ما قتل مسلح آخر والدها. اختبأت أماليا وشقيقها الأكبر، مايكل، البالغ من العمر تسع سنوات، في خزانة مظلمة، دون طعام أو ماء، لمدة أربع عشرة ساعة. عندما وصل الجنود الإسرائيليون أخيرًا، كان الأطفال في البداية مرعوبين للغاية لدرجة أنهم لم يتمكنوا من فتح الباب أو حتى التحدث. علموا لاحقًا أن أختهم، أفيجيل، البالغة من العمر ثلاث سنوات، لا تزال على قيد الحياة. وقد ركضت إلى منزل أحد الجيران، وهي ملطخة بدماء والدها، حيث أُخذت رهينة. بعد سبعة أسابيع، وبعد أن بلغت الرابعة من عمرها في الأسر، أُطلق سراحها.

بالنسبة لبعض الإسرائيليين، دام الأسر لفترة أطول بكثير. كان ديفيد كونيو، وهو كهربائي من كيبوتس نير عوز، الواقع على بُعد ميل ونصف من غزة، في منزله يوم 7 أكتوبر/تشرين الأول مع زوجته شارون وابنتيهما التوأم إيما ويولي، البالغتين من العمر ثلاث سنوات. في الصباح الباكر، أُمروا بالدخول إلى غرفتهم الآمنة وأُمروا بإبقاء الأبواب مغلقة. بعد خمس ساعات، دخل مقاتلو حماس المنزل. لم يتمكنوا من اقتحام الغرفة الآمنة، فأشعلوا النار في المنزل.

مع تصاعد الدخان، تسلق ديفيد من النافذة مع يولي وأُسروا. فقدت شارون وعيها، لكن المقاتلين سحبوها للخارج. ثم نُقل ديفيد وشارون ويولي إلى غزة. في البداية، احتُجزوا في منزل خاص، ثم نُقلوا إلى مستشفى، حيث التقوا في النهاية بابنتهم الأخرى إيما، التي كانت هي الأخرى رهينة واحتُجزت بمفردها في غزة - دون استحمام وبحد أدنى من الطعام - لمدة

عشرة أيام تقريبًا. في غرفة صغيرة في الطابق الأول من المستشفى، عاش آل كونيو مع اثني عشر رهينة آخرين، دون إمكانية الوصول المنتظم إلى الحمام. كان الطعام نادرًا، في كثير من الأحيان خبز بيتا متعفن وكميات صغيرة من الجبن. في أقل من شهرين، فقدت شارون أربعة وعشرين رطلاً.

في اليوم الذي علمت فيه شارون أنه سيتم إطلاق سراحها وبناتها ولكن زوجها لن يُطلق سراحه، احتضن الزوجان بعضهما البعض لمدة ثلاث ساعات. نُقل ديفيد لاحقًا إلى نفق تحت غزة.

هناك أكثر من ألف قصة كهذه. إنها ستدمر أي أمة. لكن كان لها تأثير خاص على الإسرائيليين، الذين كان لدى الكثير منهم بالفعل ذكريات مؤلمة عن العنف. أفاد المركز الوطني لاضطراب ما بعد الصدمة والمرونة بجامعة تل أبيب أنه بعد الهجوم، بدأ قدامى المحاربين الإسرائيليين يعانون من أعراض كامنة طويلة لاضطراب ما بعد الصدمة.

أعادت المذبحة منى يحيى إلى عام 1969، عندما اختبأت عائلتها في منزلهم بينما كان جيرانهم في بغداد يهتفون لإعدام تسعة يهود عراقيين متهمين بالتجسس. في الثالثة والثمانين من عمرها، شاهدت زيلي وينكرت، الناجية من معسكر اعتقال ترانسنيستريا، مقطع فيديو لحفيدها عومر، البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، مقيد اليدين وعاريًا من ملابسه الداخلية، داخل سيارة رياضية متعددة الاستخدامات متجهة إلى غزة. قالت لمراسل: "حفيدي في قبضة حماس - إنه أمر لا أستطيع استيعابه. هذه هي محرقة حياتي الحقيقية."

لا يمكن مقارنة تأثير السابع من أكتوبر على اليهود الإسرائيليين - الذين قضى الكثير منهم الأيام التي تلت الهجوم في حضور الجنازات، والانتقال بعد إجبارهم على ترك منازلهم، والاستدعاء للخدمة العسكرية - بتأثيره على اليهود على بُعد آلاف الأميال. ولكن حتى في شكله المخفف بشكل جذري، كان للمذبحة تأثير مزلزل. لم يكن السابع من أكتوبر مجرد يوم سبت. في الولايات المتحدة، كان أيضًا عطلة شيميني عتزيرت، التي يليها عيد سيمخات توراه.

نهاية الدورة السنوية لقراءة التوراة وعادةً ما يكون أحد أكثر أيام السنة بهجة. في هذه الأعياد، يمتنع اليهود الملتزمون عن استخدام الأجهزة الإلكترونية. في المجتمع، يعني هذا أن العديد من الناس لم يتمكنوا من الوصول إلى معلومات مباشرة عن الهجوم لمدة يومين تقريبًا بعد وقوعه. لن أنسى أبدًا محاولتي الرقص، كما هو معتاد في سيمخات توراه، مع العلم أن شيئًا مروعًا قد حدث للتو، ولكن لا أعرف ما هو بالضبط. ولن أنسى أبدًا كيف طلب أعضاء كنيسنا من غير اليهود تشغيل هواتفهم - حيث لم يُسمح لهم بذلك بأنفسهم - من أجل معرفة ما إذا كان أصدقاؤهم وعائلاتهم في إسرائيل لا يزالون على قيد الحياة.

بعد العطلة، عندما علمت أن حوالي 250 إسرائيليًا قد تم أسرهم، فكرت في جلعاد شاليط. عندما احتجزته حماس بين عامي 2006 و2011، بالكاد يمكنك دخول مؤسسة يهودية

أمريكية دون رؤية وجهه. بعد السابع من أكتوبر، حاول العديد من اليهود الأمريكيين القيام بشيء مماثل - تخيّل الرهائن حتى لا يُنسوا أو يُعاملوا كمجرد إحصائيات. طبعت عائلتنا أسماءهم ووضعتها على باب ثلاجتنا. لكن كانت هناك أسماء كثيرة يصعب تذكرها، ووجوه كثيرة يصعب تخيلها. كان حجم المجزرة هائلاً.

كان هناك شيء آخر مختلف أيضًا. لا أتذكر رؤية صورة لجلعاد شاليط مشوهة أو ممزقة. لكن هذه المرة، حدث ذلك بانتظام. لأشهر، لم أستطع السير في الشارع دون رؤية ملصقات مشوهة للرهائن. ربما رأى المخربون أنفسهم مجرد احتجاج على هجوم إسرائيل المدمر على غزة. لكنهم كانوا أيضًا يمحون، أو يسخرون، من معاناة الإسرائيليين.

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء. فقد أشارت رسالة من التقدميين الإسرائيليين إلى اليساريين في الولايات المتحدة وأوروبا إلى أن "أفرادًا كانوا، حتى الآن، شركاء سياسيين لنا، تفاعلوا بلا مبالاة" مع هجوم حماس، و"برروا أحيانًا أفعال حماس."

في تلك الأيام الأولى، بحثتُ في المقالات والخطابات المناهضة للحرب بحثًا عن تعبيرات عن الغضب إزاء مقتل مئات المدنيين الإسرائيليين. لكن في كثير من الأحيان، لم أجدها.

مع مرور الأسابيع، سمعتُ مرارًا وتكرارًا شعار "المقاومة مبررة عندما يكون الناس محتلين"، كما لو أن 7 أكتوبر لم يحدث للتو، كما لو أن حماس - المنظمة الفاسدة والاستبدادية ذات التاريخ الطويل من الوحشية ضد الإسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء - لم تقتل وتُعذب أكثر من ألف نفس. كما لو أنه لا يوجد فرق أخلاقي بين مقاطعة منتج، وبدء احتجاج، وإطلاق النار على جندي، وقتل طفل.

عندما شعرتُ بأقصى درجات الغربة، تخيلتُ جدتي تسألني عن سبب دهشتي. سمعتُها تقول: "البعض يريد قتل اليهود". كثيرون آخرون لا يمانعون. ليس الأمر جديدًا. هكذا هي الأمور.

في الأيام التي تلت 7 أكتوبر، انتشرت هذه الرسالة في كل مكان. بعد خمسة أيام من الهجوم، وصفت عشر منظمات يهودية أمريكية 7 أكتوبر بأنه "مذبحة العصر الحديث". في 17 أكتوبر، وصف نتنياهو حماس بـ"النازيين الجدد". في 28 أكتوبر، قارن الجماعة بعماليق، أسلاف هامان التوراتيين، الذين أمر سفر التثنية بني إسرائيل بـ"محو ذكراهم".

في 30 أكتوبر، صرّح سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة، جلعاد إردان، لمجلس الأمن الدولي بأنه في 7 أكتوبر، "تحوَّلت عائلات إسرائيلية بأكملها إلى رماد - تمامًا كما حدث مع عائلة جدي في أوشفيتز". وقرب نهاية خطابه، نهض من مقعده وعلّق نجمة صفراء على سترته.

وحصر بعض المسؤولين الإسرائيليين هذه التشبيهات في حماس، بينما طبّقها آخرون على الفلسطينيين بشكل عام. في 16 أكتوبر، أكّد بوعز بيسموث، عضو الكنيست عن حزب الليكود بزعامة نتنياهو، أن "المدنيين الأبرياء القساة والوحشيين من غزة شاركوا أيضًا بشكل نشط في المذبحة داخل المستوطنات الإسرائيلية..

يجب ألا نرحم القساة، فلا مجال لأي بادرة إنسانية - يجب محو ذكرى عماليق؟" في 27 نوفمبر، وفي تعليقه على استطلاع رأي أظهر تأييدًا فلسطينيًا واسع النطاق للهجوم، صرّح وزير المالية الإسرائيلي، بتسلئيل سموتريتش، بأن "هناك مليوني نازي" في الضفة الغربية.

أعرف من أين تأتي هذه المقارنات. ففي لحظات الحيرة والألم، يبحث الناس في ذاكرتهم الجماعية عن معنى الصدمة. بعد المجزرة، بدأ كنيسنا بتلاوة صلاة أسبوعية تُذكّر بـ "الجماعات التقية، والصالحة، والطاهرة، والمقدسة التي ضحّت بحياتها في سبيل الله". كُتبت هذه الصلاة قبل نحو ألف عام، عندما ذبح الصليبيون المجتمعات اليهودية على طول نهر الراين.

لكن بينما تُرسّخ هذه المقارنات التاريخية رؤيتنا، فإنها تُشوّش رؤيتنا أيضًا. إنها تمنعنا من إدراك أن العنف الفلسطيني، في جوانب جوهرية، يختلف عن العنف الذي ارتُكب ضد اليهود في الماضي.

كان اليهود الذين عانوا من المذابح في الإمبراطورية الروسية أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، واليهود الذين واجهوا الإبادة الجماعية في أوروبا في أربعينيات القرن العشرين، أعضاءً في أقلية ضعيفة تعيش في بلدانٍ قيدت حقوقها لفترة طويلة.

كان الرعب الذي عانوه مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالقمع الذي عانوه. في إسرائيل، على النقيض من ذلك، يتمتع اليهود بسيادة قانونية، بينما يفتقر الفلسطينيون إلى الحريات الأساسية. إن مقارنة 7 أكتوبر بالهولوكوست أو المذبحة تتجاهل هذا الاختلاف الجوهري. وللحفاظ على براءة إسرائيل، فإنها تُحوّل الفلسطينيين من شعبٍ مُستعبد إلى تجسيدٍ لوحوش الماضي اليهودي، وهو أحدث تجليات الكراهية الأبدية والمرضية والإبادة الجماعية التي، وفقًا لكتاب هاجاداه عيد الفصح، "تنهض في كل جيل لتدميرنا". هناك تشبيهات أفضل.

يتشابه يوم السابع من أكتوبر مع قتل وتعذيب واغتصاب آلاف الأوروبيين في هايتي المستقلة حديثًا عام 1804، أو مذبحة فورت ميمز للمستوطنين البيض على يد هنود كريك فيما يُعرف الآن بألاباما عام 1813، أو مذبحة لاري التي شنها متمردو الماو ماو الساعين للإطاحة بالاستعمار البريطاني في كينيا عام 1953 - وهي هجمات مروعة لا ترحم شنتها شعوب مضطهدة تقاوم التهجير. بالنسبة للعديد من اليهود اليوم، يُعد التفكير في هذه التشبيهات غريبًا وغير مريح - وهو ما يعادل تخيل هاجر وهي تقتل إبراهيم وسارة أو الأمم السبع في كنعان وهي تذبح قوات يشوع بن نون. إنها تُغير النص الذي يُفسر هويتنا.

لكن الأجيال السابقة من الصهاينة، الذين كانوا أقل اهتمامًا ببراءة اليهود، أجروا مثل هذه المقارنات بأنفسهم. كتب جابوتنسكي عام 1923: "كل شعب أصلي في العالم يقاوم المستعمرين ما دام لديه أدنى أمل في التخلص من خطر الاستعمار. هذا ما يفعله العرب في فلسطين". بعد ست سنوات، وبعد أن قتل الفلسطينيون 133 يهوديًا في الخليل وصفد وفي أمكنة أخرى، وصف هانز كون، المسؤول الصهيوني في القدس والذي أصبح لاحقًا باحثًا

مرموقًا في القومية، العنف بأنه أمر لا مفر منه. وكتب: "بالطبع، هاجمنا العرب في أغسطس. ولأنهم لا يملكون جيوشًا، لم يتمكنوا من الالتزام بقواعد الحرب.

لقد ارتكبوا جميع الأعمال الوحشية التي تُميز الثورة الاستعمارية. لكننا مُلزمون بالنظر في السبب الأعمق لهذه الثورة"، والذي عزاه إلى رفض الصهاينة السعي للحصول على "موافقة السكان الأصليين" لجهودهم الرامية إلى استيطان فلسطين الانتدابية. في عام 1956، عندما نصب فلسطينيون كمينًا وقتلوا ضابط أمن شابًا في كيبوتس قرب قطاع غزة، ألقى رئيس الأركان الإسرائيلي، موشيه ديان، نعيًا صريحًا للغاية. وصرح قائلًا: "دعونا لا نُلقي باللوم على القتلة اليوم". ثماني سنوات وهم يقبعون في مخيمات اللاجئين في غزة، وأمام أعينهم نُحوّل الأراضي والقرى التي سكنوها هم وآباؤهم إلى ملكٍ لنا. في كتابته عن المقاومة الفلسطينية المسلحة عام 1976، صرّح الناقد الاجتماعي الإسرائيلي يشعياهو ليبوفيتش قائلاً: "في عصرنا الذي يشهد إنهاء الاستعمار في جميع أنحاء العالم، يُولّد النظام الاستعماري بالضرورة الإرهاب."

لم يكن هؤلاء الكُتّاب يُؤيّدون العنف الفلسطيني، بل كانوا يسعون إلى فهمه. تباينت ردود الفعل التي فضّلوها. أراد جابوتنسكي ودايان سحق المقاومة الفلسطينية. انقلب كوهن على الدولة اليهودية. حثّ ليبوفيتش إسرائيل على إعادة الضفة الغربية وقطاع غزة. لكن لم يرَ أحدٌ الفلسطينيين نازيين أو مُرتكبي مذابح أو عماليق. لقد أدركوا أن التهجير العنيف والمقاومة العنيفة متشابكان.

من الصعب التحدث بصراحة اليوم. في العديد من المجتمعات اليهودية، وحتى العديد من العائلات اليهودية، فإن الإشارة إلى أن 7 أكتوبر ينبع من أي شيء سوى شر حماس المحض هو تذكرة للحرمان الكنسي. بعد المذبحة بفترة وجيزة، سأل أحد أقرب أصدقاء عائلتنا زوجتي عما إذا كنا نعتقد أن إسرائيل تتحمل أي مسؤولية عن المذبحة. أجابت بنعم. قال إنه لن يتحدث إلينا مرة أخرى.

في وقت سابق من حياتي، ربما كنت قد شاركته غضبه. ما غيّر وجهة نظري بشأن العنف الفلسطيني - وأبعدني عن التشبيهات بالنازيين والمذابح - هو مواجهة العنف الإسرائيلي. في أوائل الثلاثينيات من عمري، عندما زرت الفلسطينيين في الضفة الغربية لأول مرة، أخبرتني امرأة أنها عندما أنجبت صبيًا، بدأت إحدى بناتها في البكاء. أوضحت المرأة أن الجيش الإسرائيلي غالبًا ما كان يدخل منازل في قريتهم بحثًا عن اعتقال الأولاد الذين ألقوا الحجارة، وأنه إذا كان لديك ابن، فهذا يعني أنه من المرجح أن يتم اقتحام منزلك، سواء كان يرمي الحجارة أم لا.

لهذا السبب بكت ابنتها عندما وُلد شقيقها. في رحلة لاحقة، تجولتُ في قرية بأكملها مُقرر هدمها. ولتشجيع سكانها على المغادرة، قام الجيش الإسرائيلي بالفعل بتعطيل البئر المحلية. كان الناس الذين التقيتهم، والذين كانت جريمتهم الوحيدة هي كونهم فلسطينيين في جزء من

الضفة الغربية حيث لا تريد إسرائيل للفلسطينيين العيش، يستيقظون كل يوم متسائلين متى ستأتي الجرافات.

في السنوات التي تلت ذلك، وبينما كان أطفالي يكبرون، كنتُ أتخيل أحيانًا كيف سيكون رد فعلهم هم والمراهقين الآخرين في مدرستهم اليهودية إذا أذلّ جيش أجنبي والديهم، أو غزا منازلهم، أو استولى على أراضيهم. وفهمتُ ما كان يحاول جابوتنسكي وكوهن وديان وليبويتز قوله.

ليس القمع الإسرائيلي السبب الوحيد للعنف الفلسطيني. فالفلسطينيون، كغيرهم من البشر، مسؤولون عن أفعالهم. لكن القمع الإسرائيلي يزيد من احتمالية وقوع العنف الفلسطيني. ولا تُثير هذه النقطة جدلاً بين الأكاديميين. ففي دراسة أُجريت عام 2004 حول الانتحاريين الفلسطينيين خلال الانتفاضة الثانية، وجد الخبير الاقتصادي باسل صالح أن ما يقرب من نصفهم قد عانوا على يد الجيش الإسرائيلي: إما أنهم اعتُقلوا أو أُصيبوا، أو أنهم شاهدوا أحد أفراد عائلاتهم يُصاب أو يُعتقل أو يُقتل. وخلص إلى أن "المظالم الشخصية لها وزن كبير في تحريض الهجمات".

توصلت ورقة بحثية نُشرت عام 2006 من قِبل عالمَي اجتماع من جامعة تورنتو إلى نتيجة مماثلة. فمعظم الانتحاريين الفلسطينيين "ضحوا بحياتهم انتقامًا لمقتل قريب لهم، أو انتقامًا لهجمات محددة ضد الشعب الفلسطيني، أو ردًا على ما يُنظر إليه على أنه هجمات ضد الإسلام". أظهرت دراسة أجراها علماء سياسة إسرائيليون عام 2014 أن "التعرض الفردي للإرهاب والعنف السياسي بين الفلسطينيين والإسرائيليين يجعل الفئات السكانية المعنية أقل ميلاً لدعم جهود السلام."

توضح قصص حياة قادة حماس والجهاد الإسلامي هذه النقطة. ففي نوفمبر 1956، دخل الجيش الإسرائيلي غزة، التي كانت آنذاك تحت السيطرة المصرية، بعد أن أغلقت القاهرة مضيق تيران. وفي مدينة خان يونس، وفقًا لبيني موريس، "قتلت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي مئات اللاجئين الفلسطينيين والسكان المحليين في المدينة" أثناء بحثهم عن أسلحة. وشاهد طفل في التاسعة من عمره يُدعى عبد العزيز الرنتيسي عمه يُقتل. وقال الرنتيسي في مقابلة بعد سنوات عديدة: "ما زلت أتذكر بكاء والدي ودموعه على أخيه". "لم أستطع النوم لأشهر عديدة بعد ذلك... لقد زرعوا الكراهية في قلوبنا".

شهد زياد النخالة، البالغ من العمر ثلاث سنوات، إعدام والده. وبعد ثلاثة عقود، ساهم الرنتيسي في تأسيس حماس. ويقود النخالة الآن منافستها الأصغر حجمًا، ولكن بنفس القدر من التشدد، حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية. وعلى مر العقود، تكرر هذا النمط مرارًا وتكرارًا. ويشير غيرشون باسكين، وهو مفاوض إسرائيلي في شؤون الرهائن أمضى ساعات لا تُحصى مع قادة حماس، إلى أنهم "يُجنّدون مقاتلي حماس منذ الصغر من العائلات المفجوعة فورًا بعد كل جولة صراع."

لو كان الفلسطينيون نازيين، لظل الرأي العام الفلسطيني تجاه قتل الإسرائيليين ثابتًا نسبيًا. لكن بدلًا من ذلك، يشير خبير استطلاعات الرأي خليل الشقاقي إلى أن الدعم الفلسطيني "للعنف ليس مستقرًا؛ فهو يستجيب لإدراك التهديد، ولمستوى الألم والمعاناة الذي تفرضه سياسات وأفعال إسرائيل."

ارسم خريطة للسياسة الفلسطينية على مدى العقود الثلاثة الماضية، وستدرك وجهة نظر الشقاقي. يرتفع الدعم الفلسطيني للعنف عندما تتراجع آمال الفلسطينيين في الحرية. في اتفاقيات أوسلو لعام 1993، التي سُميت باسم المدينة النرويجية التي بدأت فيها المفاوضات، اعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بزعامة ياسر عرفات بإسرائيل ونبذت المقاومة المسلحة.

كانت هذه تنازلات تاريخية. تخلت منظمة التحرير الفلسطينية علنًا عن الهدف الذي سعت إليه منذ تأسيسها - دولة فلسطينية تمتد من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط - والوسيلة الرئيسية التي اتبعتها لتحقيقه. ومع ذلك، أظهرت استطلاعات الرأي دعمًا فلسطينيًا واسع النطاق لأن الفلسطينيين اعتقدوا أن السلطة الفلسطينية المنشأة حديثًا، والتي منحتهم قدرًا من الحكم الذاتي في الضفة الغربية وغزة، ستصبح قريبًا دولتهم ذات السيادة.

استنكرت حماس تنازلات منظمة التحرير الفلسطينية وحاولت تخريب المحادثات. في أبريل 1993، شنت أولى عملياتها الانتحارية، والتي كانت ستتبعها لاحقًا. لكن الفلسطينيين رفضوا هذه الهجمات بأغلبية ساحقة. في خريف عام 1995، ووفقًا لاستطلاعات الشقاقي، لم يؤيد سوى 18% من الفلسطينيين العنف ضد الإسرائيليين.

تغير هذا الوضع بعد أن أصبح بنيامين نتنياهو رئيسًا للوزراء عام 1996. فقد قوّض عنف حماس آمال الإسرائيليين في أن تحقق المفاوضات الأمن. فردّوا بانتخاب مرشح عارض أوسلو منذ بدايتها، والذي تباهى لاحقًا بأن رفضه التنازل عن أراضٍ كبيرة للفلسطينيين "أوقف اتفاق أوسلو". كما سرّع نتنياهو نموّ المستوطنات في الضفة الغربية، حيث كان الفلسطينيون يأملون في بناء دولتهم. تضاعف عدد الوحدات السكنية الجديدة للمستوطنين أكثر من الضعف، من أقل من ألفين في عام 1996، إلى أكثر من 4300 في عام 1998، وهو آخر عام كامل لنتنياهو في منصبه.

وبينما توقع الفلسطينيون أن تشمل السلطة الفلسطينية معظم الضفة الغربية، إلا أنها بحلول أواخر التسعينيات كانت لا تزال تحكم أرخبيلًا من القرى والبلدات المنفصلة بينما سيطرت إسرائيل على جميع الأراضي الواقعة بينهما. وعندما أغلقت إسرائيل تلك المنطقة أمام سفر الفلسطينيين، كما فعلت في كثير من الأحيان - ردًا على المخاوف الأمنية أو حتى خلال الأعياد اليهودية - فقد شلت الحياة الفلسطينية.

كانت النتائج متوقعة: فقد انخفض إيمان الفلسطينيين بأنهم سيحققون دولة بشكل حاد، وبحلول يناير 1999، قرب نهاية عهد نتنياهو، ارتفع الدعم للهجمات المسلحة إلى أكثر من 50٪.

خسر نتنياهو ذلك العام أمام إيهود باراك الأكثر اعتدالًا، وانخفض الدعم الفلسطيني للعنف لفترة وجيزة.

لكن على الرغم من انخفاض بناء المستوطنات الجديدة في البداية، إلا أنه ارتفع في عام 2000 - وهو أول عام كامل لباراك في منصبه - إلى مستوى أعلى مما كان عليه في عهد نتنياهو. كما تراجع باراك عن الانسحاب الإسرائيلي المقرر من أجزاء من الضفة الغربية. عندما التقى باراك وعرفات في كامب ديفيد صيف عام 2000، قدم رئيس الوزراء الإسرائيلي عرضًا اعتبره معظم اليهود الإسرائيليين سخيًا، بل ومتهورًا. لكن بالنسبة لمعظم الفلسطينيين، كان هذا العرض أقل بكثير من الدولة التي كانوا يأملون أن تحققها أوسلو.

سمحت لإسرائيل بضم مجموعة من مستوطنات الضفة الغربية مع الاحتفاظ بالسيطرة على وادي الأردن، الذي يشكل حدود الضفة الغربية مع الأردن، لمدة عقد على الأقل. في المجمل، كان سيبقى حوالي 20% من الضفة الغربية في أيدي إسرائيل، وكان من شأن شريحة رقيقة من الأراضي التي ضمتها إسرائيل، تمتد من الغرب إلى الشرق، أن تقسم الدولة الفلسطينية الجديدة. كما كانت إسرائيل ستسيطر على المجال الجوي الفلسطيني، والطيف الكهرومغناطيسي الخاص بالاتصالات والشبكة العنكبوتية (الانترنت)، ومعظم مواردها المائية.

كان الفلسطينيون سيحصلون على عاصمة في المناطق النائية من القدس الشرقية العربية، ولكن ليس في قلبها الحضري، ولن يتمتعوا بالسيادة على الحرم القدسي الشريف في القدس، الذي يضم المسجد الأقصى، ثالث أقدس المواقع في الإسلام. كان باراك سيسمح لعدد رمزي من اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى إسرائيل نفسها، لكنه لن يعترف بدور إسرائيل في طردهم ولن يُقر بحق اللاجئين في العودة.

بالنسبة للعديد من الفلسطينيين، الذين اعتقدوا أنه بعد التنازل عن 78% من فلسطين الانتدابية لإسرائيل، يجب أن يحكموا دولة ذات سيادة تشمل كامل ما تبقى، كان هذا غير كافٍ على الإطلاق.

أفادت التقارير أن القيادة الفلسطينية اقترحت السماح لإسرائيل بضم مستوطنات على 2.5% فقط من الضفة الغربية، وطالبت بانتقال سريع للسيطرة الفلسطينية على وادي الأردن، وهو ما رفضه باراك.

مهد هذا الشعور بخيبة الأمل الطريق للعنف الذي تلا ذلك. بعد فشل المحادثات، زار الزعيم الإسرائيلي اليميني أرييل شارون الحرم القدسي الشريف، محاطًا بألف شرطي إسرائيلي. بدأ الفلسطينيون بإلقاء الحجارة، وردّت القوات الإسرائيلية بقسوة، مطلقةً ما يقارب مليون رصاصة، ما أسفر عن مقتل خمسين شخصًا في الأسابيع الثلاثة الأولى من الثورة. تصاعدت وتيرة الفلسطينيين إلى تفجيرات انتحارية، واندلعت الانتفاضة الثانية الدموية.

في ربيع عام 2000، عندما نشر زعيم الأغلبية السابق في مجلس الشيوخ، جورج ميتشل، تحقيقًا في أعمال العنف التي أعقبت زيارة شارون، انتقد عرفات لعدم بذله المزيد من الجهود لاحتواء الاضطرابات الأولية، وانتقد إسرائيل لقمعها بقسوة. لكن هذه لم تكن سوى محفزات.

أما السبب الأعمق فكان اليأس. لم يعد الفلسطينيون يؤمنون بأن أوسلو ستجلب لهم الحرية. بحسب الشقاقي، "كان لفقدان الثقة في قدرة عملية السلام على التوصل إلى اتفاق دائم بشروط مقبولة تأثيرٌ كبير على مستوى الدعم الفلسطيني للعنف ضد الإسرائيليين". وصرح مروان البرغوثي، القيادي الفلسطيني الذي أيّد أوسلو ولكنه اعتُقل خلال الانتفاضة الثانية لمساعدته في التخطيط لهجمات أسفرت عن مقتل مدنيين إسرائيليين، لصحفي إسرائيلي بأنه "توصل إلى نتيجة بسيطة: لا تريد إنهاء الاحتلال ولا تريد وقف المستوطنات، لذا فإن الطريقة الوحيدة لإقناعك هي استخدام القوة".

في أواخر ديسمبر، حاول الرئيس بيل كلينتون إنقاذ الموقف. حدد معالم اتفاق نهائي يُخفف حدة الخلاف بين الموقفين الإسرائيلي والفلسطيني. وافق الجانبان على شروط كلينتون، ثم أعربا عن تحفظات تحولت إلى رفض. استمرت المفاوضات حتى بداية العام الجديد، لكن حكومة إسرائيل كانت على وشك الانهيار. قبل أسابيع من الانتخابات التي بدا من المؤكد خسارتها، احتفظ ائتلاف باراك بدعم ما يزيد قليلاً عن ثلث أعضاء البرلمان الإسرائيلي. حتى لو تمكن المفاوضون الإسرائيليون والفلسطينيون من الاتفاق، فقد فاتت الفرصة. انتهت المحادثات، وأصبح شارون رئيس وزراء إسرائيل الجديد، واستمرت الانتفاضة الثانية لأربع سنوات أخرى.

وأخيرًا، في عام 2005، وبعد مقتل أكثر من ألف إسرائيلي وأكثر من ثلاثة آلاف فلسطيني، انتهت الانتفاضة الثانية. مع انحسار القتال، توفي عرفات، وخلفه محمود عباس -المفضل في واشنطن لمعارضته للمقاومة المسلحة- كرئيس للسلطة الفلسطينية التي لا تزال تحكم الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، على الرغم من احتفاظ إسرائيل بالسيطرة المطلقة. سرعان ما واجه عباس تحديًا. في عام 2006، بعد انسحاب إسرائيل من مستوطناتها من قطاع غزة، سيطر الفلسطينيون على البرلمان في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، والذي فازت به حماس. ولكن تحت ضغط من الولايات المتحدة، رفض عباس النتائج وحل البرلمان. عندما حاولت قواته إخراج حماس من غزة، معقلها السياسي، جاءت جهوده بنتائج عكسية. انتزعت حماس السيطرة على القطاع بعنف في قتال بين الأشقاء أودى بحياة 161 فلسطينيًا. ردت إسرائيل، التي كانت تسيطر بالفعل على معظم منافذ الدخول والخروج من غزة، بفرض حصار.

ما تلا ذلك كان تجربة طبيعية على فعالية نبذ المقاومة المسلحة. في عام 2007، عيّن عباس رئيسًا للوزراء، سلام فياض، الذي لاقى نفوره من العنف الفلسطيني وجهوده لمكافحة الفساد استحسانًا في كل من واشنطن والقدس. في هذه الأثناء، في غزة، خزّنت حماس الأسلحة، وحفرت الأنفاق، وأطلقت الصواريخ. بعد ست سنوات، تنحى فياض عن منصبه وأعلن

هزيمته. قال لكاتب صحيفة نيويورك تايمز روجر كوهين: "في الواقع، لم تدعمني إسرائيل أبدًا. في الواقع، كانت معادية للغاية. نظام الاحتلال أكثر رسوخًا، ولا توجد أي علامة على أنه بدأ يتخلى عن قبضته على حياتنا". وتوقع أن يؤدي فشله إلى "تعزيز قوة حماس."

بينما كان عباس وفياض يتعاونان مع إسرائيل، سعى فلسطينيون آخرون إلى بديل مختلف عن حماس: الاحتجاج السلمي. في عام 2005، أطلقت منظمات المجتمع المدني الفلسطينية حركة مقاطعة إسرائيل وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها BDS، والتي استوحيت من حركة مقاطعة جنوب إفريقيا إبان نظام الفصل العنصري.

جرّمت إسرائيل تأييد هذه المقاطعات، وروّجت جماعات يهودية أمريكية راسخة لتشريعات تعاقب الأمريكيين الذين شاركوا فيها. ناشد الفلسطينيون الأمم المتحدة، لكن الولايات المتحدة أفشلت مرارًا وتكرارًا قرارات تنتقد السلوك الإسرائيلي في مجلس الأمن .كما حثّ الفلسطينيون المحكمة الجنائية الدولية على إجراء تحقيقات في السلوك الإسرائيلي، وهو ما عمل كل من الرؤساء الديمقراطيين والجمهوريين على إلغائه.

وأخيرًا، في ربيع عام 2018، أطلق الفلسطينيون في غزة مسيرة العودة الكبرى، حيث سار الفلسطينيون باتجاه السياج الفاصل بين غزة وإسرائيل. لم تبدأ حماس المظاهرات؛ فقد حمل المتظاهرون أعلامًا فلسطينية، لا أعلام حماس. لكن حماس احتضنت الحركة بمجرد أن اكتسبت الاحتجاجات دعمًا واسع النطاق، حتى أنها أوقفت إطلاق الصواريخ.

مع اقتراب المتظاهرين من السياج، أطلق القناصة الإسرائيليون النار عليهم، عادةً تحت الركبة، مما أدى في كثير من الأحيان إلى إصابتهم بتشوهات مدى الحياة. في ذلك الربيع، أنشأت غزة نادٍ لكرة القدم لمبتوري الأطراف. وأفاد المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان ومنظمة بتسيلم الإسرائيلية لحقوق الإنسان بأنه "خلال الاحتجاجات، قتلت قوات الأمن الإسرائيلية 223 فلسطينيًا وأصابت أكثر من 8000. وكانت الغالبية العظمى من الضحايا غير مسلحين ولم يشكلوا أي تهديد لأحد."

تأملوا الرسالة التي أرسلتها إسرائيل إلى الفلسطينيين بردها بهذه الطريقة على مسيرة غير مسلحة في معظمها. كثيرًا ما يُقال لي إنه لو لم يكن الفلسطينيون قتلة، ورافضين، وغير أكفاء، وعنيدين، لكان لديهم بلدهم الخاص الآن. وصحيح أن القادة الفلسطينيين لم يرتكبوا أخطاء فحسب، بل ارتكبوا جرائم أيضًا. كانت تفجيرات حماس الانتحارية، التي ساعدت في انتخاب نتنياهو، كارثة استراتيجية وأخلاقية. وكذلك الانتفاضة الثانية. محمود عباس مستبد فاسد يعبث بنظريات تحريفية للهولوكوست.

ولكن تكمن المشكلة في ميل مجتمعنا إلى لوم الفلسطينيين على اضطهادهم. حتى عندما يفعل الفلسطينيون نفس الأشياء التي يطلبها اليهود منهم - عندما يعترفون بإسرائيل، ويساعدون الجيش الإسرائيلي في الحفاظ على سلامة الإسرائيليين، ويحتجون سلميًا - لا تزال المؤسسات اليهودية تتصرف بنفس الطريقة. لم تتوقف إسرائيل عن هدم منازل الفلسطينيين عندما

اعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بوجودها. لم تطالب لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (إيباك) بتجميد الاستيطان عندما أصبح فياض رئيسًا للوزراء. لم تبدأ رابطة مكافحة التشهير (ADL) بإدانة سجن الأطفال الفلسطينيين عندما استخدم الفلسطينيون اللاعنف.

نطالب الفلسطينيين بأن يُنتجوا غاندي، وعندما يفعلون، تعمل المنظمات اليهودية الأمريكية على تجريم مقاطعتهم، ويطلق الجنود الإسرائيليون النار على ركبهم. وبغض النظر عن الاستراتيجية التي يستخدمها الفلسطينيون في نضالهم من أجل الحرية، تعمل الحكومة الإسرائيلية وحلفاؤها اليهود الأمريكيون على ضمان فشلها.

لقد كان هذا العمل فعالاً للغاية. بحلول عام 2023، كانت مجموعة واسعة من التكتيكات الفلسطينية - بما في ذلك التعاون الأمني، ودعوات المقاطعة، ومناشدات المؤسسات الدولية، ومسيرات الاحتجاج - قد هُزمت إلى حد كبير. على أرض الواقع، استمرت الأوضاع في التدهور. تضاعف عدد المستوطنين في الضفة الغربية والقدس الشرقية ثلاث مرات تقريبًا منذ بدء أوسلو. أفادت الأمم المتحدة أن هجمات المستوطنين في ذلك العام بلغت أعلى معدل لها منذ أن بدأت المؤسسة في جمع البيانات في عام 2006.

بالنسبة لفلسطينيي الضفة الغربية، لم تكن الحياة محفوفة بالمخاطر فحسب، بل كانت في كثير من الأحيان مُرعبة. خذ على سبيل المثال سائق شاحنة أمريكي فلسطيني يُدعى كايد أبو عواد. في صيف عام 2023، باع منزله في أوك لاون، إلينوي، واستعد للانتقال إلى المنزل الذي بناه والده في بلدة ترمسعيا بالضفة الغربية.

أراد أن يتعلم أطفاله الأمريكيون "لغة وثقافة" وطنهم. كان يعلم أن العيش في الضفة الغربية محفوف بالمخاطر. في يناير من ذلك العام، حطم المستوطنون ثمانية من نوافذ منزله ورسموا عليها رسومات جرافيتي. لكن كايد دفع ثمن إصلاح النوافذ وشحن أثاثه من الولايات المتحدة. ثم، في يونيو، عاد المستوطنون وأحرقوا الجزء الأمامي من المنزل. عندما وصل كايد وعائلته بعد أسبوعين، اضطروا للعيش مع جيرانهم، مكتظين في غرفة واحدة.

عندما بدأ بإعادة بناء منزله، فكّر في بناء سياج لحماية إضافية، لكن قيل له إن السلطات الإسرائيلية لن تمنحه تصريحًا أبدًا. إذا بُني بدون تصريح، فقد يُهدم السياج، وقد يواجه غرامة باهظة.

كانت الأوضاع في غزة أسوأ. كان القطاع "غير صالح للعيش"، وفقًا للأمم المتحدة، ويعود ذلك إلى حد كبير إلى نقص الكهرباء والمياه النظيفة. أصبح المحيط قبالة سواحلها فاسدًا منذ أن قامت محطات الصرف الصحي في غزة، التي تفتقر إلى الكهرباء الكافية لمعالجة مياه الصرف، بضخها في البحر. في الربع الثاني من عام 2023، بلغت نسبة البطالة بين الشباب حوالي 60%. بين خريجي الجامعات الجدد، بلغت 70%.

أخبرني الصحفي محمد شحادة، الذي نشأ في غزة، أن أصدقاءه هناك كانوا يسخرون أحيانًا من أنهم لا يستطيعون حتى تحمل تكاليف الحب لأنهم يفتقرون إلى المال لمغادرة منازل والديهم. في العشرينيات من عمرهم، توقف الكثيرون عن تهنئة بعضهم البعض بعيد ميلاد سعيد، لأن كل عام يمر كان بمثابة تذكير مؤلم بعجزهم عن بناء حياة مستقلة. في عام 2020، كتب شحادة مقالًا عن الانتحار. وأوضح أن "الانتحار في الإسلام خطيئة لا تُغتفر، وتؤدي إلى الخلود في النار". ومع ذلك، "فكّر كل من أعرفه في غزة تقريبًا في الانتحار أكثر من مرة". كانوا يعتقدون أن "جحيم الله، مهما كان، سيكون أفضل من جحيم غزة الآن". كان ذلك قبل الحرب الحالية.

كلما ساءت الظروف، قلّ اهتمام الحكومات الأجنبية. لم تتظاهر إدارة ترامب ولا بايدن حتى بالضغط على إسرائيل لإنهاء التوسع الاستيطاني أو رفع الحصار عن غزة. الأنظمة العربية التي رفضت لعقود الاعتراف بإسرائيل في غياب حل للقضية الفلسطينية، تراجعت عن مسارها ووقعت الاتفاقيات الإبراهيمية.

أشارت الباحثة السياسية الأمريكية الفلسطينية دانا الكرد إلى أن "الفلسطينيين فقدوا ثقتهم بفعالية الاحتجاج السلمي، وكذلك الدور المحتمل للمجتمع الدولي."

سيكون من التبسيط الادعاء بأن حماس شنت هجوم 7 أكتوبر لأن الفلسطينيين فقدوا ثقتهم بقدرة اللاعنف على تحسين حياتهم. فحماس لا تستطلع آراء الفلسطينيين قبل أن تقتل الإسرائيليين. وكما رأينا، شنت تفجيرات انتحارية خلال السنوات الأولى من اتفاقية أوسلو، عندما عارض معظم الفلسطينيين العنف.

لكن كما وثّق الباحث ريتشارد ديفيس، تزداد حماس جرأةً مع ازدياد الدعم الفلسطيني للمقاومة المسلحة. وهكذا، فبينما لم يتسبب قمع أمريكا وإسرائيل المتواصل للمبادرات الفلسطينية الأكثر سلمية في مذبحة 7 أكتوبر، إلا أنه قلل من القيود السياسية على تنفيذها.

لتبرير الهجوم، أشار محمد ضيف، القيادي في حماس، تحديدًا إلى فشل الجهود الفلسطينية في ضمان امتثال إسرائيل للقانون الدولي. في ظل الاحتلال وتنكره للقوانين والقرارات الدولية المتعلقة بالعربدة، وفي ظل الدعم الأمريكي والغربي والصمت الدولي، أعلن، "قررنا وضع حد لكل هذا."

هذه الديناميكيات ليست حكرًا على الفلسطينيين. ففي جميع أنحاء العالم، أشارت عالمة السياسة كيرسا كلاين ريكمان إلى أن فشل الاحتجاج السلمي "يمكن أن يشجع على استخدام العنف من خلال إقناع المتظاهرين بأن اللاعنف لن يحقق تنازلات ذات معنى".

في حين أن هناك فرقًا أخلاقيًا جوهريًا بين استهداف حماس المتعمد للمدنيين وهجمات المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا إبان نظام الفصل العنصري، في حين اقتصرت معظم الاحتجاجات على المواقع العسكرية والصناعية، شجّع قمع التكتيكات اللاعنفية المقاومة المسلحة هناك أيضًا.

صرّح نيلسون مانديلا عام 1964: "لم يُتخذ قرار الشروع في أشكال عنيفة من النضال السياسي إلا بعد فشل كل السبل الأخرى، وبعد أن سُدّت جميع قنوات الاحتجاج السلمي أمامنا". لم يعد بإمكانه "الاستمرار في الدعوة إلى السلام واللاعنف في وقتٍ واجهت فيه الحكومة مطالبنا السلمية بالقوة."

كان مانديلا يُقرّ بحقيقةٍ قال عنها الشاعر دبليو. إتش. أودن إن حتى تلاميذ المدارس يعرفونها: "من يُساء إليه/ يُساء إليه بالمقابل". لكن في حالة إسرائيل، يدّعي العديد من اليهود عدم معرفتهم، لأن ذلك يتطلب الاعتراف بأن الشر لا يكمن فقط في أعدائنا - هامان، عماليق، حماس - بل فينا وفي الدولة التي تتحدث باسمنا.

لذا، فإن العنف الذي تمارسه دولة يهودية ضد الفلسطينيين يُولّد المزيد من العنف ضد اليهود. يروي محمد شحادة قصة صديقه المقرب، علي، الذي يصفه بأنه "أكثر شخص أعرفه تفكيرًا، وأذكى، وأصدق، وأكثر ثقافة، وأكثرهم رقيًا."

تجادل الشابان في كل شيء، من أوكرانيا إلى جوردان بيترسون إلى جيمي فالون. كان عليّ يحمل آراءً راسخة تجاه حماس. "كان يكرههم بكل ما أوتي من قوة لسنوات؛ لم يكن يطيقونهم حرفيًا، وكان ينتقدهم دائمًا بكل ما يفعلونه، بما في ذلك أعمالهم المسلحة". لقد روعته مجزرة 7 أكتوبر.

لكن الحرب التي شنتها إسرائيل ردًا على ذلك أجبرت عائلة علي على النزوح ثلاث مرات داخل مدينة غزة. ووصف اضطراره للسير أميالًا عبر شوارع مليئة بالأنقاض هربًا من حيّ تعرض لقصف كثيف إلى آخر، بينما كان يسمع أحيانًا صرخات استغاثة من تحت منازل مُقصوفة، أصواتٌ كانت تشتد ليلًا.

في النهاية، سار علي وعائلته جنوبًا عبر القطاع، مارًّا بجثث متحللة، إلى مدينة دير البلح، حيث استأجروا غرفة صغيرة بسعر باهظ. كان علي يقضي ساعاتٍ كل يوم، بينما تتساقط القنابل، يبحث عن الطعام أو الماء. قال لمحمد: "إذا كانت هناك حياةٌ أخرى ويومُ جزاء، فإن العقاب الوحيد الذي سأطلبه من الله على الإسرائيليين هو إجبارهم على الخروج، والكفاح من أجل الماء، ثم حمل غالونات الماء تلك لمسافة عشرات الكيلومترات يوميًا تحت وطأة الغارات الجوية."

في يناير، قُتل علي بصاروخ إسرائيلي أثناء سيره بجوار مستشفى الأقصى في دير البلح. قبل وفاته، أخبر محمدًا أنه غيّر رأيه بشأن قتل الإسرائيليين. لردع إسرائيل، أصبح يدعم الهجمات المسلحة.

طرقٌ لعدم الرؤية

في 13 أكتوبر 2023، ظهر رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق نفتالي بينيت على قناة سكاي نيوز البريطانية. قبل أربعة أيام، أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي "حصارًا شاملًا على قطاع

غزة. لن يكون هناك كهرباء، ولا طعام، ولا وقود، كل شيء مغلق". سأل المذيع التلفزيوني عن آثار الإغلاق على الفلسطينيين المعرضين للخطر. سأل: "ماذا عن أولئك الموجودين في المستشفيات الذين يعتمدون على أجهزة الإنعاش والأطفال في الحاضنات؟". كان بينيت متشككًا. أجاب: "هل ستستمر حقًا في سؤالي عن المدنيين الفلسطينيين؟" "ما خطبك؟ ألم ترَ ما حدث؟ نحن نقاتل النازيين."

في غضون أشهر، كان الفلسطينيون في غزة يتضورون جوعًا. في 9 مارس، نشر كاتب العمود في صحيفة نيويورك تايمز، نيكولاس كريستوف، رسالة من عالم لغويات في غزة يُدعى محمد الشناط. "قررتُ أنا وزوجتي تناول وجبة كل يومين فقط للحفاظ على حياة أطفالنا لأطول فترة ممكنة"، أوضح. "ما تبقى لنا هو التبن. بدأنا بطحنه وخبزه [هكذا] وتناوله".

في 18 مارس، أعلنت مبادرة "تصنيف مراحل الأمن الغذائي"، وهي مبادرة عالمية تتعاون مع مؤسسات مثل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) لتقييم ندرة الغذاء، أن "المجاعة وشيكة، إذ يعاني 1.1 مليون شخص، أي نصف سكان غزة، من انعدام أمن غذائي كارثي". وفي 22 مارس، أفاد مسؤول في اليونيسيف، كان قد عاد لتوه من غزة، بأن "عمق الرعب يفوق قدرتنا على وصفه."

ونفى المسؤولون الإسرائيليون كل ذلك. وصرح وزير الشؤون الاستراتيجية، رون ديرمر، للإذاعة الوطنية العامة في 26 مارس: "لا توجد مجاعة وشيكة. هذا كذب وافتراء". وفي 4 أبريل، ظهر وزير الاقتصاد والصناعة الإسرائيلي، نير بركات، على قناة MSNBC. وعندما سُئل عما إذا كان "قلقًا بشأن المعاناة الإنسانية داخل غزة"، تجاهل بركات السؤال ببساطة. وأجاب: "نحن قلقون بشأن الرهائن الـ 134". هؤلاء الفتيات محتجزات في الأنفاق منذ نصف عام. يتعرضن للاغتصاب والتعذيب، هذا ما يقلقنا. نحن قلقون بشأن هؤلاء الضحايا في إسرائيل.

منطقيًا، لم يكن رد بركات منطقيًا، نظرًا لتداخل سلامة الرهائن وسلامة الفلسطينيين في غزة. لقد عرضتهما الحرب للخطر. أُطلق سراح الغالبية العظمى من الرهائن المحررين ليس من خلال عمليات عسكرية، بل من خلال اتفاق في نوفمبر لوقف القتال ومقايضة الأسرى الإسرائيليين بأسرى فلسطينيين. بعد إطلاق سراحهم، قال العديد من الرهائن السابقين إن أكبر مخاوفهم أثناء وجودهم في الأسر كانت القنابل الإسرائيلية. قال أحدهم إن رؤية الإسرائيليين يحتجون من أجل وقف إطلاق النار على التلفزيون هي ما منحه الأمل في النجاة.

لكن رغم عدم ترابط بركات كدليل سياسي، إلا أن رفضه مناقشة معاناة الفلسطينيين كان له غرض نفسي. فإلى جانب قادة يهود آخرين، منحنا الإذن بعدم الاكتراث. بعد سفره إلى إسرائيل بعد حوالي تسعة أشهر من بدء الحرب، لاحظ مؤرخ الهولوكوست الإسرائيلي المولد، عمر بارتوف، أن "عيون الناس تتجمد كلما ذُكرت معاناة المدنيين الفلسطينيين". ما شهدته في الولايات المتحدة كان أقل تطرفًا، ولكنه مع ذلك كان مثيرًا للقلق. مرارًا وتكرارًا،

سمعت حاخامات ومعلمين وأشخاصًا عاديين يتحدثون في فعاليات يهودية عن الإسرائيليين الذين قُتلوا وخُطفوا في ذلك اليوم المروع.

وصفوا شخصياتهم، ووظائفهم، وهواياتهم، وتاريخ عائلاتهم، والأشخاص الذين أحبوهم - إنسانيتهم. كانت نصائحهم جليلة، ومتحمسة، وأحيانًا أجهشت بالبكاء. لقد جسّدت حقيقة عميقة حول معنى أن تكون يهوديًا، والتي عُبِّر عنها بشكل مشهور في التعاليم التلمودية بأن "جميع اليهود مسؤولين عن بعضهم البعض". كان الصوت الآخر لليهودية غائبًا إلى حد كبير، مُعبّرًا عنه في آية تلمودية شهيرة أخرى، تُفسّر أن الله خلق آدم حتى "لا يقول أحدٌ لآخر: أبي أعظم من أبيك" - نسبي يجعلني أسمى منك. في تلك التجمعات الحربية، رأيتُ اليهودية تُعاد تعريفها كعقيدة قبلية بحتة. "نحن مسؤولون عن بعضنا البعض" أصبحت "نحن مسؤولون عن بعضنا البعض، وحدنا".

في كثير من الأحيان، لم يُذكر موت الفلسطينيين. عندما كانوا يُذكرون، كانوا كحشدٍ بلا هوية. سمعتُ أحيانًا تعبيرات حزن على موت أبرياء. لكنني لم أسمع أبدًا أيًا من القتلى يُوصف بأنه فردٌ له قصصه وشخصياته وعائلاته التي يحبها. لم أسمع اسمًا قط. كانت الرسالة جلية: حياتنا مهمةٌ بطريقةٍ لا تُهمّهم.

كان عدد القتلى الفلسطينيين مجرد إحصائيات. وكان من المهم ألا تكون الإحصائيات مبالغًا فيها. أعلنت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك) في نوفمبر/تشرين الثاني أن "وزارة الصحة في غزة" أو "وزارة الصحة الفلسطينية في غزة" تخضع لسيطرة حماس، ولا يمكن الوثوق بالمعلومات التي تنشرها".

أضاف مايكل أورين في أبريل أن أرقام القتلى الواردة من غزة "غير صحيحة تمامًا". وشكلت التقارير التي تفيد بأن العديد من القتلى أطفال "افتراءً دمويًا"، مستمدة من "الاستعارات اللا سامية التقليدية" حول قيام اليهود بقتل الأطفال المسيحيين. وعلى عكس بينيت وديرمر وبركات، لم يرفض أورين الحديث عن القتلى الفلسطينيين. لكن رسالته الأساسية كانت واحدة: الضحايا الحقيقيون هم اليهود.

لا حرج في الحذر بشأن أعداد القتلى المنشورة في خضم الحرب. لكن من اللافت للنظر أن المسؤولين اليهود الذين شككوا في الأرقام الواردة من غزة لم يُظهروا أي شكوك مماثلة في مزاعم إسرائيل بشأن الفلسطينيين الذين قتلتهم.

كان الأمر كما لو أن الدولة اليهودية، بطبيعتها، أكثر جدارة بالثقة. ولكن عندما يتعلق الأمر بأرقام الضحايا في غزة، فإن هذا خطأ واضح. يجد الخبراء الخارجيون، بأغلبية ساحقة، أن بيانات وزارة الصحة في غزة أكثر مصداقية بكثير من بيانات إسرائيل. والسبب بسيط: فالوزارة دأبت على نشر أسماء الأشخاص الذين تدّعي أنهم ماتوا، إلى جانب معلومات تعريفية أخرى. أما إسرائيل فلا تفعل ذلك.

ولهذا السبب، اعتمدت كل من وزارة الخارجية الأمريكية والأمم المتحدة على بيانات وزارة الصحة في الماضي. وبعد 7 أكتوبر، كررتا ذلك. ففي الأسابيع الخمسة الأولى من الحرب، حظيت أرقام وزارة الصحة الإجمالية للضحايا - والتي جاءت من مشارح المستشفيات - بتأييد المسؤولين الأمريكيين والأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة هيومن رايتس ووتش.

في التحليل العام الأكثر تعمقًا حتى الآن لتقارير الوزارة منذ بداية الحرب، تحقق باحثون في منظمة Airwars البريطانية غير الربحية بدقة من ما يقرب من ثلاثة آلاف حالة وفاة بين المدنيين خلال الأيام السبعة عشر الأولى من الصراع. ووجدوا أن أرقام الوزارة، إن وجدت، كانت منخفضة للغاية: 75 في المائة فقط من الأسماء التي تحققوا منها قد أدرجت في قائمة الضحايا الرسمية.

مع استمرار الحرب، دمرت إسرائيل أو ألحقت أضرارًا بمعظم مستشفيات غزة، مما جعل الكثير منها غير قادر على تحديد هوية القتلى والإبلاغ عنها بشكل فعال من مشارحهم. ونتيجة لذلك، قالت وزارة الصحة إنها اضطرت إلى اللجوء إلى إحصاء بسيط من قبل المتحدثين باسم المستشفيات، وبعد أشهر فقط بدأت ببطء في استعادة معلومات التعريف من العائلات، بمجرد إصدار شهادات الوفاة. وبحلول نهاية مارس، كان حوالي ثلث الوفيات المبلغ عنها مجهولة الهوية.

من الصعب تجاهل المفارقة: فقد ارتفعت نسبة الضحايا المجهولين بسرعة - مما سهل على مؤيدي إسرائيل السخرية من الوزارة - بسبب تصرفات إسرائيل نفسها. ومع ذلك، لم تكن الأرقام الإجمالية للوزارة بعيدة في أي وقت عن الأرقام الإسرائيلية. وبحلول نهاية أبريل، خلصت وزارة الصحة إلى مقتل ما يقرب من خمسة وثلاثين ألف فلسطيني. وفي أوائل مايو، قدر نتنياهو العدد بثلاثين ألفًا.

في يناير، أفاد الصحفي الإسرائيلي يوفال أبراهام أن الجيش الإسرائيلي اعتبر إجمالي أعداد الضحايا في وزارة الصحة موثوقًا للغاية لدرجة أنه استشهد بها كثيرًا في إحاطاته الداخلية. ومن الصعب معرفة عدد القتلى المدنيين. وقد حدد باحثون من كلية لندن للصحة والطب الاستوائي الذين حللوا بيانات وزارة الصحة أن 68 في المائة من القتلى في الأسابيع القليلة الأولى من الحرب كانوا من النساء أو الأطفال أو كبار السن.

نظرًا لأن معظم الرجال البالغين ليسوا مقاتلين في حماس، فإن نسبة عدد المدنيين كان أعلى من ذلك بالتأكيد. لكن في الأشهر اللاحقة، ازدادت فوضى اتصالات الوزارة. في مارس، كانت لا تزال تُفيد بأن النساء والأطفال يُشكلون أكثر من 70% من الضحايا - وهو رقم مُستمد من مكتب الإعلام الحكومي في غزة وليس من إحصاءات الوزارة نفسها. ربما يكون هذا الرقم مُبالغًا فيه. قدّر مايكل سباغات، الخبير الاقتصادي في جامعة لندن والمتخصص في قياس وفيات الحرب، في مايو أن نسبة الضحايا الذين تمكنت وزارة الصحة من تحديدهم، من النساء والأطفال وكبار السن، تُشكل حوالي 60%.

لكنه مع ذلك وجد أن البيانات الواردة من غزة أكثر موثوقية بكثير من البيانات الإسرائيلية. في مايو، في مقابلة مع برنامج "دكتور فيل" التلفزيوني، زعم نتنياهو أن ما يقرب من نصف الأشخاص الذين قتلتهم إسرائيل كانوا "إرهابيين". كيف توصل إلى ذلك؟ قال سباغات لصحيفة تورنتو ستار: "من المُبالغة منهم أن ينتقدوا الأرقام الصادرة عن جهات تسيطر عليها حماس، ثم يُطلقون أرقامًا من العدم".

بحلول نهاية شهر أغسطس، سدّ وزير الصحة في غزة الفجوة وتمكنت من تحديد هوية أكثر من 80% من الوفيات المُبلّغ عنها، حيث تُظهر السجلات أن ثلث القتلى الذين تم تحديد هويتهم كانوا دون سن الثامنة عشرة. هذا يزيد عن 11350 طفلاً، والعدد الحقيقي أعلى من ذلك بكثير لأن العديد منهم لم يتم تحديد هويتهم أو حتى الإبلاغ عنهم، ولأن السلطات الصحية في غزة لا تُدرج الأطفال الذين ماتوا بسبب سوء التغذية والمرض. هذا يعني مقتل ما لا يقل عن أربعة وثلاثين طفلاً فلسطينياً - أكثر من فصل دراسي كامل - في المتوسط كل يوم منذ 7 أكتوبر. من بين الأطفال القتلى الذين نعرف أسماءهم، أكثر من سبعمائة كانوا دون سن الواحدة. هذه هي الحقائق التي اعتبرها أورين "افتراءً دمويًا."

بالإضافة إلى التقليل من الخسائر البشرية في حرب إسرائيل، حوّل القادة اليهود اللوم. أعلنت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك) في 14 أكتوبر: "حماس مسؤولة عن مقتل المدنيين الفلسطينيين". والسبب: أنها تستخدمهم "دروعًا بشرية". في مواد الضغط التي وزعتها خلال الأشهر الثمانية الأولى من الحرب، استخدمت المنظمة هذه العبارة ست عشرة مرة على الأقل.

إن حجة الدروع البشرية تُكدس المغالطات. فبموجب القانون الدولي، يعني استخدام المدنيين كدروع بشرية إجبارهم على العيش بجوار أهداف عسكرية. ولا يعني ذلك القتال في منطقة يتواجد فيها مدنيون فحسب. فحماس تفعل ذلك بالتأكيد. إنها تقاتل من داخل سكان غزة، وبالتالي تُعرّض المدنيين للخطر. لكن هذا أمرٌ شائع لدى الجماعات المتمردة. فلا ترتدي أي قوة حرب عصابات زيًا عسكريًا ذا ألوان زاهية، أو تدخل ساحة مفتوحة، أو تُواجه جيشًا تقليديًا أقوى بكثير. من الثورة الأمريكية ونهضة إيطاليا إلى النضالات ضد الاستعمار في الملايو والهند وسريلانكا وفيتنام، بالإضافة إلى الجزائر وأنغولا وفلسطين، اختبأ المسلحون بين المدنيين، كما تشير أستاذة القانون الدولي الإسرائيلية المولد، نيف غوردون. "حماس، بهذا المعنى، ليست استثناءً".

في الواقع، حتى الجيوش التقليدية غالبًا ما تعمل بالقرب من المدنيين. يقع مقر الجيش الإسرائيلي في وسط تل أبيب. وتقع أربع وعشرون مدرسة على بُعد كيلومتر ونصف من مبنى هيئة الأركان العامة، الذي يضم مكاتب كبار قادته. ولأن هذا الاختلاط شائع، فإن القانون الدولي واضح: لا يصبح المدنيون هدفًا مشروعًا لمجرد وجود مقاتلين بالقرب منهم.

وفقًا للبروتوكول الإضافي لاتفاقية جنيف الرابعة، فإن وجود مقاتلين في منطقة ما "لا يعفي أطراف النزاع من التزاماتهم القانونية تجاه السكان المدنيين". ومن أهم هذه الالتزامات القانونية مبدأ التناسب.

ووفقًا للبروتوكول الإضافي، لا يمكن أن تكون "الخسائر في أرواح المدنيين" الناجمة عن هجوم "مفرطة مقارنةً بالميزة العسكرية الملموسة والمباشرة المتوقعة". وقد أصبح هجوم إسرائيل على غزة مفرطًا في 9 أكتوبر، عندما قطعت إسرائيل إمدادات الغذاء والكهرباء عن جميع سكان القطاع. في اليوم التالي، أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي أنه "حرر جميع القيود" على أسلوب قتال إسرائيل، وصرح المتحدث العسكري باسمها أن "التركيز ينصبّ على الأضرار لا على الدقة". وقد وجد تحقيق أجرته مجلة +972 ومجلة "لوكال كول" أنه في الأيام الخمسة الأولى من القتال وحدها، قصفت إسرائيل أكثر من ألف "هدف قوي" - بما في ذلك مبانٍ سكنية شاهقة وبنوك وجامعات ومكاتب حكومية - لم تضربها لقيمتها العسكرية، بل لمجرد تأثيرها النفسي. كان المسؤولون الإسرائيليون يأملون أن يُصدم الدمار سكان غزة ويدفعهم للانقلاب على حماس. وتبرير ذلك باستخدام "الدروع البشرية" يُحرق المبادئ الأساسية للقانون الدولي.

بينما ألقت حجة الدروع البشرية باللوم على حماس في مقتل الفلسطينيين، ألقى تبرير آخر باللوم على الفلسطينيين ككل. وصرح آلان ديرشويتز، أحد أشهر المدافعين الأمريكيين عن إسرائيل: "تذكروا أن مواطني غزة، هؤلاء المدنيين الأبرياء الذين يذرفون الدموع من أجلهم، صوتوا لحماس". استشهد مورتون كلاين، رئيس المنظمة الصهيونية الأمريكية، بفوز حماس كدليل على أن "حماس تُمثل الشعب الفلسطيني بأغلبية ساحقة."

دليلهم هو الانتخابات التشريعية الفلسطينية عام 2006، التي فازت فيها حماس بأغلبية المقاعد. ولكن، كما هو الحال مع أعداد القتلى الوهمية والدروع البشرية، تنهار هذه الحجة عند أدنى ضغط. فمن جهة، لم تُجرَ انتخابات عام 2006 في غزة فقط؛ بل صوّت لها الفلسطينيون في الضفة الغربية والقدس الشرقية أيضًا. ووفقًا لمنطق ديرشويتز وكلاين، فإن هذا يجعلها هدفًا مشروعًا أيضًا. ومن جهة أخرى، لم تفز حماس بأغلبية الأصوات في تلك الانتخابات؛ بل فازت بنسبة 44٪. وحسب بعض الروايات، فقد حصلت على معظم المقاعد التشريعية فقط لأن مرشحين من فتح، منافستها الرئيسية، ترشحوا كمستقلين في بعض الدوائر، مما أدى إلى تجزئة الأصوات المناهضة لحماس.

فهل الشعب الذي يُجوّع ويُقصف في غزة اليوم مسؤول عن ذلك؟ علاوة على ذلك، تُظهر استطلاعات الرأي التي أجراها خليل الشقاقي أن القضيتين اللتين جذبتا الناخبين إلى حماس هما فساد السلطة الفلسطينية وعجزها عن الحفاظ على القانون والنظام. في عام 2006، قال أكثر من 60% من ناخبي حماس إنهم يؤيدون حل الدولتين. يتطلب الأمر قفزة أخلاقية كبيرة لتحميل هؤلاء الناخبين مسؤولية مذبحة وقعت بعد سبعة عشر عامًا.

يتطلب الأمر قفزة أكبر لإلقاء اللوم على الفلسطينيين في غزة اليوم. من ناحية، وجدت استطلاعات الرأي التي أجريت في غزة قبل 7 أكتوبر بقليل أن حماس لا تحظى بشعبية كبيرة هناك. ومن ناحية أخرى، لم يكن سوى حوالي ربع الفلسطينيين الذين يعيشون حاليًا في غزة قد بلغوا السن القانونية للتصويت في عام 2006.

بالإضافة إلى الإنكار والتبرير، كان هناك تبرئة أخيرة: الجميع يفعل ذلك. كان المسؤولون الإسرائيليون مولعين بشكل خاص بتشبيه قصفهم بحروب الولايات المتحدة وبريطانيا ضد تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) وضد ألمانيا النازية. وجادل المتحدث الإسرائيلي مارك ريجيف في أواخر أكتوبر 2023 قائلاً: "في أي حالة قتالية، كما هو الحال عندما كانت الولايات المتحدة تقود تحالفًا لإخراج داعش من الموصل، كانت هناك خسائر في صفوف المدنيين". وفي مؤتمر صحفي عُقد بعد بضعة أيام، قارن نتنياهو قتل إسرائيل للمدنيين في غزة بغارة بريطانية على مقر الجيستابو أصابت مستشفى للأطفال عن طريق الخطأ. وقال للصحفيين: "لم تُخبروا الحلفاء ألا يقضوا على النازية بسبب هذه العواقب المأساوية."

وطعن المسؤولون الأمريكيون في هذه المقارنة بداعش. وأشاروا إلى أنه حتى خلال أعنف المعارك ضد داعش، كانت الولايات المتحدة تُسقط عادةً ما بين ألفين وثلاثة آلاف ذخيرة شهريًا. في الشهر الأول من حرب غزة، أسقطت إسرائيل عشرة آلاف ذخيرة. لكن هذا يُغفل النقطة الأساسية. تهدف مقارنات داعش والنازية إلى جعل أي معدل قصف - أي عدد من وفيات المدنيين - مقبولاً. عند محاربة أعداء عازمين على إنشاء إمبراطوريات شمولية، فأنت تفعل ما يلزم. ولكن سواء كان هذا الموقف مناسبًا أم لا ضد ألمانيا هتلر والدولة الإسلامية، فإن المشكلة في تشبيه غزة هي أن الألمان في عام 1944 والعراقيين والسوريين في عام 2015 لم يكونوا تحت احتلال أجنبي. كانوا أعضاء في دول ذات سيادة.

هذا هو السبب أيضًا في أنه من المضلل تبرير رد إسرائيل على 7 أكتوبر من خلال تخيل كيفية رد الولايات المتحدة على هجوم من المكسيك. الولايات المتحدة لا تحتل المكسيك ولا تصدرها. ولا تحدد ما إذا كان بإمكان المكسيكيين استيراد الأثاث. عندما تدخل المكسيك، لا يبحث مسؤولو الحدود عن اسمك في قاعدة بيانات الحكومة الأمريكية لتحديد ما إذا كان مسموحًا لك بالدخول بشكل قانوني.

تمارس إسرائيل هذه السيطرة على غزة. سيكون التشبيه الأفضل هو الاستجابة للهجمات من المحميات الهندية في القرن التاسع عشر. في غزة، لا تقاتل إسرائيل مواطني دولة أخرى. إنها تقاتل أشخاصًا لا يحملون جنسية لأن إسرائيل أجبرتهم على ترك أرضهم وتحصرهم الآن في غيتو ساحلي. من الصعب إيجاد تشبيهات معاصرة لهذا النوع من الحرب لأنه عودة إلى العصر الاستعماري.

تختبئ وراء كل هذه الحجج حجة أعمق: ليس لدى إسرائيل خيار. حتى كثير من اليهود، الذين يتألمون، بل ويشعرون بالرعب، من معاناة غزة، ما زالوا لا يستطيعون تصور بديل.

ورغم معاناتهم، فهم يؤيدون الحرب اعتقادًا منهم أن الإسرائيليين لن يكونوا آمنين ما لم تدمر إسرائيل حماس.

تكمن مشكلة هذا المنطق في أن إسرائيل لا تستطيع تدمير حماس، على الأقل ليس بقوة السلاح. لا تصدقوني. بعد ثمانية أشهر من الحرب، أكد المتحدث باسم جيش الدفاع الإسرائيلي ذلك بنفسه. ومع عودة القوات الإسرائيلية مجددًا لمحاربة حماس في أجزاء من غزة يُفترض أنها قُضي عليها، أقرّ الأدميرال دانيال هاجاري قائلًا: "إن تدمير حماس، وإخفاءها، هو مجرد ذرّ رماد في عيون الجمهور".

لا تستطيع إسرائيل تدمير حماس لنفس السبب الذي عجزت الولايات المتحدة عن تدمير الفيتكونغ أو طالبان، ولم يستطع الفرنسيون هزيمة جبهة التحرير الوطني في الجزائر، ولم يستطع البريطانيون هزيمة الجيش الجمهوري الأيرلندي في أيرلندا الشمالية. يقاتل المتمردون من داخل السكان المدنيين. لذا، تتطلب هزيمتهم حرمانهم من الدعم الشعبي. يتطلب ذلك إقناع من يعيشون بين المتمردين بأنهم إذا انقلبوا عليهم - مع مخاطرة شخصية كبيرة - سيحصلون على شيء أفضل في المقابل. عندما يعيش هؤلاء الناس تحت الاحتلال الأجنبي، فإن ذلك يتطلب إقناعهم بوجود طريقة أفضل لتحقيق حريتهم.

لماذا يصدق أي فلسطيني ذلك؟ إنهم ينظرون إلى الضفة الغربية ويرون أنه حتى عندما يساعد القادة الفلسطينيون إسرائيل في قمع حماس، فإن احتلال إسرائيل يزداد ترسخًا ووحشية. إنهم ينظرون إلى إسرائيل نفسها ويرون أنه بالكاد يعتقد أي شخص في التيار السياسي اليهودي السائد أنهم يستحقون المواطنة، سواء في بلدهم ذي السيادة أو في بلد واحد متساوٍ.

في يوليو 2024، عندما صوّت الكنيست على إقامة الدولة الفلسطينية، لم يصوّت أي عضو من أي حزب يهودي بنعم. يلاحظ الفلسطينيون أن إسرائيل لا تزال تسجن مروان البرغوثي، ألد منافسي حماس السياسيين، وهو الرجل الذي أشاد بنيلسون مانديلا لقدرته على "تحدي الكراهية واختيار العدالة على الانتقام". فرغم أن البرغوثي قد يقدم للفلسطينيين بديلاً مقنعاً غير إسلامي عن حماس، إلا أنه لا يزال يطالب بالحرية الفلسطينية.

عندما تُصرّح إسرائيل للفلسطينيين بأنهم سيظلون خاضعين مهما فعلوا، فلن يكون لحملة عسكرية ضد حماس أي فرصة لتحقيق نجاح دائم. ومثل قادة الولايات المتحدة في فيتنام، الذين استعانوا بأرقام جثث قتلى الفيتكونغ لإثبات انتصارهم في الحرب، يمكن لنتنياهو أن يتباهى بعدد ألوية حماس التي قضت عليها إسرائيل وعدد صواريخ حماس التي فجّرتها. لكن حماس ستُجنّد المزيد من المقاتلين وتُصنّع المزيد من الصواريخ. انظروا فقط إلى السجل.

منذ أن سيطرت حماس على غزة عام 2007، تعاملت إسرائيل معها كمشكلة عسكرية، ولم تزد حماس إلا قوةً عسكرية. في عام 2008، قطع أطول صاروخ لحماس مسافة 25 ميلًا. بعد عقد ونصف من الحصار، والقصف الإسرائيلي المتكرر - وكل ذلك بهدف ضمان افتقار

حماس للأسلحة التي تهدد إسرائيل - أطلقت حماس صواريخ في هذه الحرب يمكن أن تقطع مسافة 155 ميلًا. يتم تجميع بعض صواريخها من ذخائر أسقطتها إسرائيل على غزة. في التسعينيات، كان لدى حماس ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل. وبحلول 7 أكتوبر، وصل عدد مقاتليها إلى أربعين ألفًا.

يمكن لإسرائيل أن تعزل حماس من السلطة في غزة، كما عزلت الولايات المتحدة حركة طالبان في أفغانستان. لكن بعض المراقبين عن كثب يعتقدون أن حماس تفضل في الواقع العمل كقوة حرب عصابات بحتة. ستتخلى بكل سرور عن مسؤولية جمع القمامة. إنها تُدرك أن أي حكومة بديلة لن تتمتع بأدنى مصداقية إذا وضعتها إسرائيل في السلطة. وقد شهدت حماس نموًا في شعبيتها منذ بدء هذه الحرب، وخاصة في الضفة الغربية. كما تُدرك أن المذبحة الإسرائيلية غير المسبوقة ستوفر لها طفرة تجنيد غير مسبوقة، حيث يسعى المزيد من المتضررين أكثر من أي وقت مضى للانتقام لقتلاهم.

يمكن للمسؤولين اليهود الإسرائيليين والأمريكيين أن يتخيلوا عالمًا بدون حماس. ولكن حتى لو اختفت المنظمة بطريقة ما، فإن جماعة مسلحة أخرى ستحل محلها ببساطة. فالفلسطينيون، في نهاية المطاف، يقاتلون الصهيونية، ولاحقًا إسرائيل، منذ ما يقرب من قرن. الثورة العربية بين عامي 1936 و1939، ومعركة الكرامة عام 1968، وعمليات اختطاف الطائرات في السبعينيات - لم تنفذ حماس أيًا منها لأن حماس لم تُنشأ حتى عام 1987.

المقاومة الفلسطينية سبقت حماس بكثير، وستتأخر عنها بالتأكيد. وكلما ازدادت وحشية إسرائيل، ازدادت احتمالية وحشيتها. وكما حذّر عامي أيالون، الرئيس السابق لجهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي (الشاباك): "إذا واصلنا بثّ الإذلال واليأس، فستزداد شعبية حماس. وإذا نجحنا في إقصاء حماس من السلطة، فسنواجه القاعدة. وبعد القاعدة، وداعش، وبعد داعش، لا يعلم إلا الله."

مشكلة دعم تدمير غزة لمجرد اعتقادك أن إسرائيل بحاجة إلى تدمير حماس هي أنه، على الرغم من جسامة جرائم حماس، فإن إسرائيل لا تعاني من مشكلة حماس. بل لديها مشكلة فلسطينية. مشكلتها هي أن الأمن الإسرائيلي والأمن الفلسطيني مترابطان. وهذا يعني أنه من السخافة الاعتقاد بأن إسرائيل تزداد أمانًا عندما تُحوّل غزة إلى أنقاض. لأنه إذا لم يكن سكان غزة آمنين، فسيضمنون عاجلاً أم آجلاً أن الإسرائيليين ليسوا كذلك.

إن الإصرار على ضرورة تدمير إسرائيل لحماس، حتى مع تزايد وضوح عجزها عن ذلك، ليس في نهاية المطاف سوى وسيلة أخرى للتهرب من مواجهة العواقب الإنسانية لهذه الحرب. إنها وسيلة أخرى للتهرب من رؤية ما يُرتكب باسمنا. لا يختلف الأمر كثيرًا عن الادعاء بأن وزارة الصحة في غزة تختلق وفيات الفلسطينيين، أو أن حماس تتحمل مسؤولية تلك الوفيات لأنها تستخدم الفلسطينيين كدروع بشرية، أو أن ما تفعله إسرائيل في غزة لا يختلف عما فعله

الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. هذه الادعاءات لا تصمد حتى أمام أبسط تدقيق. إنها أقرب إلى تمائم أكثر منها حجج. إنها تُبعد مشاعر خطيرة كالحزن والعار.

خلال حرب فيتنام، قال الحاخام أبراهام جوشوا هيشل: "كلما فتحت كتاب الصلاة، أرى أمامي صور أطفال يحترقون بالنابالم". أظن أن هذا ما نخشاه: إذا وضعنا تمائمنا جانبًا ونظرنا إلى غزة في أعيننا، فلن نمحو صورها من مخيلتنا أبدًا. سننظر إلى كتب صلواتنا، التي يتضمن الكثير منها أدعية للجيش الذي قتل عليًا، صديق محمد، وسنرى لحم غزة يحترق ويتضور جوعًا. سنراه على جدران معابدنا ومراكز الجالية اليهودية، وفي احتفالات عيد الفصح ووجبات السبت. ستهتز الأرض من تحتنا.

ربما نخشى حتى من حساب الله. لقد خشيت هيشل ذلك. قال في اجتماعٍ مناهضٍ للحرب عام 1968: "صوت الله يهزّ السماء والأرض، والإنسان لا يسمع أدنى صوت. يزأر الرب كالأسد. كلمته كالنار، كمطرقةٍ تُحطّم الصخور. والناس يتجولون بلا حراك، بلا اضطراب، بلا وعي". إذا كنتَ تعتبر هذه المخاوف عبثية، فاطمئن: عزّ نفسك بأنه لا يوجد محاسبة أخلاقية، لا في هذا العالم ولا في الآخرة. لكن أي يهودي يعتقد أن هيشل كان مُحقًا في ارتجافه عام 1968، لا بد أن يرتجف الآن.

"من الغريب أن نستيقظ ذات صباح"، كما أشار هيشل خلال حرب فيتنام، "لنجد أنفسنا في مصحةٍ للأمراض العقلية". إحدى طرق توضيح جنون الخطاب اليهودي السائد حول غزة هي تخيّل رد فعل اليهود إذا قدّمت دولةٌ أخرى، شعبٌ آخر، الحجج التي نطرحها بانتظام حول هذه الحرب.

عندما تقتل حكومات أخرى مدنيين، فإنها تُشكك في أعداد الضحايا أيضًا. في عام 2011، اتهمت الأمم المتحدة النظام السوري بقتل أكثر من أربعة آلاف شخص في حملته ضد الاحتجاجات المناهضة للحكومة. أصرّ الرئيس السوري، بشار الأسد، على أن هذه الأرقام كاذبة. وتساءل: "من قال إن الأمم المتحدة مؤسسة ذات مصداقية؟". هل يبدو هذا مألوفًا؟ في عام 2015، عندما اتهم مسؤولون من الأمم المتحدة والولايات المتحدة المملكة العربية السعودية بشن تفجيرات أودت بحياة العشرات من المدنيين في اليمن، قال وزير الخارجية السعودي إن على المنتقدين "الحذر من الحقائق والخيال". بعد عام، عندما اتهمت مجموعات المراقبة الدولية الحملة الأمريكية ضد داعش بمقتل أكثر من 1500 مدني، سخر متحدث باسم البنتاغون من هذه الادعاءات ووصفها بأنها "دعاية". هل سيصدق معظم اليهود هذه الإنكارات؟ بالطبع لا. سندرك أن الحكومات - الديمقراطية والاستبدادية، وما بينهما - تحاول التقليل من جرائمها.

الحكومات أيضًا تُلقي باللوم على طرف آخر. هل نعتقد أن إسرائيل اخترعت ذريعة استخدام الدروع البشرية؟ في عام 2017، اتهمت صحيفة عرب نيوز، المملوكة للحكومة السعودية، معارضي الرياض في اليمن بـ"استخدام المدنيين كدروع بشرية" لأن "قواتهم لا تزال متمركزة في المناطق السكنية".

في عام 2022، بعد أربعة أيام من إرسال موسكو قواتها للسيطرة على كييف، صرّح المتحدث باسم وزارة الدفاع الروسية بأن حكومة أوكرانيا "تستخدم سكان المدينة كدروع بشرية للقوميين الذين نشروا وحدات مدفعية ومعدات عسكرية في المناطق السكنية". خلال حرب فيتنام، ألقى الجيش الأمريكي منشورات تزعم أن الفيتكونغ الشيوعي "يستخدم النساء والأطفال العزل كدروع".

أين اختبأ العديد من مقاتلي الفيتكونغ بينما كانت القنابل الأمريكية تنهمر على المدنيين الفيتناميين؟ في متاهة واسعة من الأنفاق تحت الأرض، تمامًا مثل حماس. لأنه إذا كنت قوة حرب عصابات تتعرض لقصف من إحدى أقوى القوات الجوية في العالم، فهذا أمر منطقي. هل يُعقل أن يُلقي اليهود، الذين يستخدمون اليوم دروعًا بشرية لإلقاء اللوم على حماس بسبب قنابل إسرائيل، على الفيتكونغ لإلقاء اللوم على أمريكا، أو على أوكرانيا لإلقاء اللوم على روسيا؟ لا مجال لذلك.

لو واجهت أي حكومة أخرى الاتهامات الموجهة لإسرائيل من قبل الصحفيين والأكاديميين والدبلوماسيين وجماعات حقوق الإنسان والمحاكم الدولية والأمم المتحدة، ومن قبل السكان الذين يُقتلون، لصدقها معظم اليهود. في تسعينيات القرن الماضي، دعمت اللجنة اليهودية الأمريكية المحاكم الدولية التي حاكمت قادة رواندا ويوغوسلافيا السابقة.

في فبراير 2024، أدان جوناثان جرينبلات "الإبادة الجماعية لشعب الأويغور في الصين". كيف قررت اللجنة اليهودية الأمريكية ورابطة مكافحة التشهير أن هذه الأنظمة ترتكب خطأً ما؟ بالاستماع إلى نفس جماعات حقوق الإنسان التي يصفونها بمعاداة السامية عندما تدين إسرائيل.

بينما يسخر بعض اليهود من اليمين الديني، وخاصة في إسرائيل، من مفهوم حقوق الإنسان برمته باعتباره غربيًا وبالتالي غير يهودي، فإن هذه ليست الطريقة التي يتحدث بها معظم القادة اليهود. إنها بالتأكيد ليست الطريقة التي يتحدثون بها إلى العالم. عندما سُئل نتنياهو في مايو 2024 عن مذكرة التوقيف التي أوصى بها المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية، لم يُنكر مفهوم محاكم جرائم الحرب. قال إنه يجب أن تستهدف إيران وسوريا. لم يرفض شرعية المحكمة الجنائية الدولية. إنه يريد فقط أن تحقق مع شخص آخر. يدّعي أنه يؤمن بالقانون الدولي. ولكن ليس للدولة اليهودية.

هذه الاستثنائية اليهودية تمنح إسرائيل ترخيصًا لتجاهل العالم بأسره. بعد أكثر من شهر بقليل من حرب غزة، نشر يوسي كلاين هاليفي، أحد أكثر المعلقين السياسيين الإسرائيليين تأثيرًا باللغة الإنجليزية، مقالًا يجادل فيه بأن الإسرائيليين "يجدون أنفسهم في انفصال أخلاقي عن جزء كبير من المجتمع الدولي". لم يُجب على هذا الانفصال بدحض أي من الانتقادات الأخلاقية الموجهة إلى سلوك إسرائيل - حصارها للإمدادات الإنسانية، تدميرها أحياءً بأكملها، وقتلها الجماعي للأطفال. لم يُجب حتى على الانتقادات الاستراتيجية: أن إسرائيل لا تستطيع هزيمة حماس دون منح الفلسطينيين بعض الأمل في انتهاء اضطهادهم.

بدلًا من ذلك، روى قصة. أكد هاليفي أنه خلال الانتفاضة الثانية، عندما كانت إسرائيل ترفض الانتقادات الدولية، سأل الأمين العام للأمم المتحدة آنذاك، كوفي عنان: "هل يمكن أن يكون العالم كله على خطأ وإسرائيل وحدها على حق؟" أجاب الإسرائيليون، وفقًا لهاليفي، "بلا تردد: بالتأكيد". وأوضح هاليفي أن هذا يجب أن يكون رد إسرائيل على الانتقادات بشأن غزة. قل للعالم أن يذهب إلى الجحيم.

وهذا ما فعلته الحكومة الإسرائيلية بالضبط. في 26 مايو/أيار، بعد يومين من أمر محكمة العدل الدولية إسرائيل بوقف هجومها على مدينة رفح جنوب غزة، قصفت إسرائيل فلسطينيين يحتمون هناك في خيام. أشعلت القنبلة حريقًا أسفر عن مقتل 45 شخصًا وإصابة ما يقرب من 250 آخرين. وقال طبيب في المستشفى الذي استقبل الجرحى: "العديد من الجثث كانت مصابة بحروق بالغة، وبُترت أطرافها وتمزقت إربًا". ما رد نتنياهو؟ في اليوم التالي، استشهد بامرأة تُدعى إيلانا بوسكيلا، قُتلت ابنتها في 7 أكتوبر/تشرين الأول، وقالت إنها تريد تدمير حماس. وأصر نتنياهو قائلاً: "لا يستطيع ألف مدعٍ عام في لاهاي الوقوف ولو لثانية واحدة ضد هذه الحقيقة المجردة التي أعلنتها إيلانا بوسكيلا، ضد عدالة مسارنا الأخلاقي".

يمكن فهم مثل هذه التصريحات على أفضل وجه كنوع من اللاهوت. إسرائيل دولة صالحة بطبيعتها. وحربها في غزة تظل أخلاقية حتى مع توثيق جرائمها أمام الجميع.

قبل أكثر من ستين عامًا، حذّرت حنة أرندت من أن القومية اليهودية تنطوي على هذا الخطر. كتبت عام 1963: "كانت عظمة هذا الشعب في إيمانه بالله. والآن لا يؤمن هذا الشعب إلا بنفسه؟" هذا هو المعنى الحقيقي لكلمات نتنياهو. عندما يُعلن بفخر أن الدولة اليهودية لا يمكن الحكم عليها بأي معيار خارجي، فإنه يجعل من تلك الدولة - والشعب اليهودي الذي تتحدث باسمه - موضع عبادة.

كما هو الحال في الكتاب المقدس، عادةً ما تصاحب عبادة الأصنام خطايا أخرى. "أنتم ترفعون أعينكم نحو أوثانكم، وتسفكون الدماء"، وبخ النبي حزقيال بني إسرائيل في القرن السادس قبل الميلاد. "لقد ارتكبتم رجاسات". ربما كان يتحدث عن هذه الحرب.

معاداة السامية الجديدة

تنشط رابطة مكافحة التشهير، واللجنة اليهودية الأمريكية، والحكومة الإسرائيلية على منصة X، منصة التواصل الاجتماعي المعروفة سابقًا باسم تويتر. بين 7 أكتوبر 2023 و4 يونيو 2024، استخدمت حسابات X التابعة لرابطة مكافحة التشهير واللجنة اليهودية الأمريكية، بالإضافة إلى الحسابات الرسمية للحكومة الإسرائيلية ورئيس الوزراء الإسرائيلي، كلمة "مجاعة" أو "جوع" أقل من عشر مرات. كما استخدمت كلمة "معاداة السامية" أكثر من ألف مرة.

بالنسبة للمنظمات اليهودية الرسمية التي ترغب في تجنب التدقيق فيما فعلته إسرائيل في غزة، فإن اتهام منتقدي إسرائيل بمعاداة السامية هو أفضل طريقة لتجنب الالتفات. فهو أكثر

فعالية من التشكيك في أعداد القتلى، أو استخدام الدروع البشرية، أو مقارنة قصف إسرائيل بحروب أخرى، لأن هذه الحجج تتطلب مناقشة غزة. أما اتهامات معاداة السامية، فتُغير الموضوع تمامًا. إنهم يحوّلون نقاشًا حول الحرب إلى نقاش حول دوافع معارضيها. هذا لا يعني أن معاداة السامية ليست خطيرة، بل هي من أكثر أشكال الكراهية صمودًا وتدميرًا في التاريخ.

يُشبّه الباحث البريطاني ديفيد فيلدمان معاداة السامية بـ"مخزون" قديم من الأفكار العدائية عن اليهود، تراكم على مرّ القرون، بل على مرّ آلاف السنين. ولأن اليهود لطالما وُصفوا بالماكرين، والحاقدين، والأقوياء، فإن الدوافع المعادية لليهود تُمثّل مستودعًا ثقافيًا، يستمدّ منه الناس - أحيانًا بغير وعي، وأحيانًا أخرى عن عمد - عند محاولة تفسير ظواهر تُثير غضبهم أو تُحيّرهم.

يُلاحظ الآباء المُنزعجون من فظاظة الثقافة الأمريكية أن هوليوود مليئة باليهود اليساريين الملحدين. وقد صادف إعلان دونالد ترامب الختامي في حملته الرئاسية لعام 2016، وهو يُدين "هيكل السلطة العالمي المسؤول عن القرارات الاقتصادية التي سلبت طبقتنا العاملة"، أن يُظهر صورة لويد بلانكفين، الذي يُدير بنكًا استثماريًا يُدعى جولدمان ساكس. يقرر رجل من بيتسبرغ، مهووس بطالبي اللجوء من أمريكا الوسطى، أن رحلتهم إلى الولايات المتحدة تُدبّرها جمعية مساعدة المهاجرين العبرية (HIAS).عندما يعلم أن كنيسًا يهوديًا محليًا يشارك في احتفالات السبت الوطني للاجئين التي تنظمها الجمعية، يُثير غضبه.

هذا الميل إلى إضفاء قوى شيطانية خارقة على اليهود والمبادرات اليهودية والأيديولوجيات اليهودية يُمكن أن يُشكّل أيضًا انتقادات لإسرائيل والصهيونية. في 4 أغسطس 2024، بعد أن غمر المتظاهرون شوارع فنزويلا احتجاجًا على تزوير الديكتاتور نيكولاس مادورو للانتخابات، ألقى مادورو باللوم في الاضطرابات على "قوة الصهيونية الإعلامية، التي تُسيطر على جميع شبكات التواصل الاجتماعي والأقمار الصناعية وكل السلطة". في اليوم نفسه، وبعد اندلاع أعمال شغب عنيفة مناهضة للمهاجرين في جميع أنحاء المملكة المتحدة، حصدت تغريدة تزعم أن "دولة إسرائيل تُحرق المملكة المتحدة" مليون مشاهدة.

لكن من الضروري التمييز بين إدانات إسرائيل والصهيونية التي تستخدم مفاهيم معادية للسامية، وبين إدانة إسرائيل والصهيونية نفسها، والتي لا تزيد تعصبًا عن معارضة أي دولة أو أيديولوجية سياسية أخرى. يخلط القادة اليهود الإسرائيليون والأمريكيون بين الأمرين باستمرار. ينشرون اتهامات معاداة السامية في محاولة لإسكات الانتقادات الموجهة لحرب لا يستطيعون الدفاع عن أخلاقياتها. ويزعمون أن اقتراح استبدال التفوق اليهودي بالمساواة أمام القانون هو تعصب. وفي حماسهم للدفاع عن إسرائيل، غالبًا ما يتحالفون مع سياسيين من اليمين المتطرف الذين تهدد قوميتهم المسيحية البيضاء اليهود.

لم يكن الأمر دائمًا على هذا النحو. ففي العقدين الأولين من وجود إسرائيل، حاول دبلوماسيوها تشويه سمعة المنتقدين الأجانب. لكن الجماعات اليهودية الأكثر نفوذًا في أمريكا لم تكن دائمًا

منسجمة معهم. كانوا أكثر حذرًا مما هم عليه اليوم من توجيه اتهامات معاداة السامية إلى منتقدي إسرائيل.

نظرت المؤسسة اليهودية الأمريكية إلى معاداة السامية بشكل مختلف لأنها نظرت إلى رسالتها بشكل مختلف. في منتصف القرن العشرين، ركزت المنظمات اليهودية الأمريكية على النضال من أجل الحقوق المدنية أكثر من الدفاع عن الدولة اليهودية. دفعهم هذا التوجه إلى وصف معاداة السامية بأنها متشابكة مع أشكال أخرى من التعصب. يشير المؤرخ بيتر نوفيك إلى أن جماعات مثل رابطة مكافحة التشهير واللجنة اليهودية الأمريكية ركزت على "الجذور النفسية المشتركة لجميع أشكال التحيز" و"قللت باستمرار من أهمية الاختلافات بين مختلف أهداف التمييز". إذا كانت أشكال التحيز المختلفة مترابطة، فإن مكافحة العنصرية ضد السود كانت وسيلة جيدة لمكافحة معاداة السامية ضد اليهود.

كان أساس هذا الرأي هو افتراض أن التعصب، سواء تبناه القيصر نيكولاس الأول أو هاينريش هيملر أو جورج والاس، كان أقوى لدى اليمين الأيديولوجي. يميل المحافظون إلى تبجيل الأيام الخوالي، أو على الأقل خيالهم عنها. في ألمانيا، روّج النازيون لأساطير عن ماضٍ مجيد ونقي عرقيًا. في الولايات المتحدة ما بعد الحرب، دافع دعاة الفصل العنصري والأصلانيون عن رؤية أقدم وأقل شمولاً لأمريكا. لذلك، بينما رفض قادة اليهود المؤسسون الشيوعية، فقد نظروا إلى الليبراليين - الذين دافعوا عن التقدم - كحلفاء أفضل لأنفسهم وللمجموعات المهمشة تاريخيًا الأخرى.

حتى يومنا هذا، تتبنى معظم المنظمات الأخرى التي تمثل المجتمعات الأمريكية المضطهدة تقليديًا هذا الرأي. ترى الجمعية الوطنية لتقدم الملونين أن العنصرية ضد السود مشكلة أكبر بين الجمهوريين المحافظين منها بين الديمقراطيين التقدميين. هكذا أيضًا تنظر المنظمة الوطنية للمرأة إلى التمييز على أساس الجنس، وينظر صندوق الدفاع القانوني والتعليمي للأمريكيين المكسيكيين إلى التمييز ضد ذوي الأصول الأسبانية، وتنظر حملة حقوق الإنسان إلى رهاب المثلية الجنسية ورهاب المتحولين جنسيًا. تُدرك هذه المجموعات أن التقدميين قادرون على التعصب، بالطبع. لكنهم يُدركون أيضًا أن المحافظين أكثر ميلًا إلى إضفاء طابع رومانسي على الفترات السابقة في التاريخ الأمريكي، عندما كان الرجال المسيحيون البيض المستقيمون في السلطة بشكل أكثر راحة. لهذا السبب يتعهد دونالد ترامب بجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى.

ولكن في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، بدأت المؤسسة اليهودية الأمريكية في التخلي عن هذه الرؤية. فقد تم إقرار قانون الحقوق المدنية وقانون حقوق التصويت. وكانت مجموعة أصغر سنًا وأكثر نضالًا من النشطاء السود أكثر حذرًا من التحالفات مع البيض.

بدأ اليهود الأمريكيون - الذين سعوا لعقود للاندماج في المجتمع الأوسع - يشعرون بالقلق من أن الاندماج يهدد الهوية اليهودية. وفي هذه اللحظة من التحول السياسي، ضربت حرب عام 1967 - التي وضعت إسرائيل في مواجهة مصر وسوريا والأردن - اليهود الأمريكيين

بقوة زلزالية. دفع الخوف من تدمير إسرائيل، متبوعًا بانتصارها المذهل - في ستة أيام تكاد تكون توراتية - الصهيونية إلى مركز الحياة اليهودية الأمريكية المؤسسية. جمعت الجماعات اليهودية الأمريكية 100 مليون دولار لإسرائيل في شهر واحد. بعد الحرب، بدأت اللجنة اليهودية الأمريكية بإرسال موظفيها إلى برنامج تدريب صيفي في الدولة اليهودية. يقول المؤرخ ستيفن ت. روزنتال إن حرب الأيام الستة عام 1967 "حوّلت إسرائيل إلى موضوع تبجيل دنيوي."

لكن هذا خلق مشكلة. فبينما كان اليهود الأمريكيون يلتفون حول إسرائيل بشكل غير مسبوق، كان بعض اليساريين يتبنون القضية الفلسطينية كجزء من نضال عالمي ضد الاستعمار. في عام 1967، أدانت مجموعتان ناشطتان أسودتان مؤثرتان، هما لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية (SNCC) وحزب الفهود السود، إلى جانب زعيم منظمة اليسار الجديد "طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي"، إسرائيل. وفي عام 1973، شجبت الجمعية العامة للأمم المتحدة - بقيادة الدول حديثة العهد بالتحرر من الاستعمار في الجنوب العالمي - "الصهيونية [هكذا] والإمبريالية الإسرائيلية."

بحلول أوائل سبعينيات القرن العشرين، كانت النظرة التقليدية للمجتمع اليهودي الأمريكي لمعاداة السامية - والتي، مثل غيرها من أشكال التعصب، تنبع في الغالب من اليمين - تتعارض بشكل مباشر مع رغبتهم في الدفاع عن إسرائيل، وكثير منهم الذي كان أشد منتقديه من اليسار. وهكذا، وُلد فهم جديد لمعاداة السامية - مُصمم لحماية إسرائيل. ولا يزال معنا حتى يومنا هذا.

في عام 1974، نشر أرنولد فورستر وبنجامين إبستاين، وهما مسؤولان في رابطة مكافحة التشهير، كتابًا بعنوان "معاداة السامية الجديدة". وجادلا بأن ما جعله جديدًا هو أن كراهية اليهود، التي لطالما ارتبطت باليمين المتطرف، أصبحت الآن متطرفة أيديولوجيًا. كما أنها لا تقل خطورة عن اليسار المتطرف. منذ منتصف ستينيات القرن الماضي، أكد المؤلفان أن "اليسار الراديكالي" قد تخلى عن "المعارضة اليسارية التقليدية لمعاداة السامية"، ويمثل اليوم خطرًا على يهود العالم لا يقل عن خطر اليمين.

لم يكن فورستر وإبشتاين مخطئين في رؤيتهما لمعاداة السامية على اليسار العالمي. فباستخدام الصور النمطية القديمة عن قدرة اليهود المطلقة وذكائهم المالي، يجعل اليساريون أحيانًا اليهود - أو الصهيونية - بديلًا لجميع شرور الرأسمالية العالمية أو الإمبريالية. في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، انبثق جزء كبير من هذا الخطاب من الاتحاد السوفيتي. كان القادة السوفييت وعملاؤهم من أوروبا الشرقية يتهمون اليهود المحليين بأنهم عملاء صهاينة منذ أوائل الخمسينيات. لكن الدعاية ازدادت حدة بعد أن قطعت موسكو العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل في أعقاب حرب عام 1967.

عندما هزت الاحتجاجات المناهضة للحكومة بولندا عام 1968، ألقى مسؤولو الحزب باللوم على "المافيا الصهيونية الدولية". في العام نفسه، عندما أطلق التشيكيون تجربة التحرير

المعروفة باسم "ربيع براغ"، وصفت الصحف السوفيتية الإصلاحيين بأنهم "عملاء لمنظمة صهيونية دولية". حتى اليساريون الذين لم يتلقوا أوامر من موسكو تحدثوا أحيانًا عن الصهاينة بنفس الطريقة الكلاسيكية المعادية للسامية التي طالما تحدث بها الناس عن اليهود. في عام 1967، على سبيل المثال، هاجمت لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية "الصحافة الخاضعة لسيطرة الصهيونية" وزعمت أن عائلة روتشيلد، التي "تسيطر على جزء كبير من الثروة المعدنية في أفريقيا"، كانت لها يد في إنشاء إسرائيل.

تكمن مشكلة حجة فورستر وإبشتاين في أنهما لم يعترفا فقط بأن اليساريين يستخدمون أحيانًا مصطلحات معادية للسامية، بل وصفا معاداة اليسار للصهيونية بأنها معاداة للسامية في حد ذاتها، كما لو أن كراهية اليهود وحدها هي التي تفسر لماذا قد يعارض معارضو الاستعمار والعنصرية أيديولوجية تُنزل الفلسطينيين إلى مرتبة أدنى من القانون، ودولة احتجزت ملايين الفلسطينيين تحت القانون العسكري بعد عام 1967.

لكن حجة فورستر وإبشتاين لاقت رواجًا. فخلال نصف قرن منذ نشرها، حذّر القادة اليهود مرارًا وتكرارًا من "معاداة سامية جديدة"، ناجمة عن موجة مزعومة من كراهية اليسار لليهود. وكما أشار الباحثان آدم هابر وماتيلدا فيغلروفيتش، فإن هذا عادةً ما يتزامن مع تنامي الدعم لحقوق الفلسطينيين.

حتى قبل السابع من أكتوبر، كان القلق من "معاداة سامية جديدة" يتزايد من جديد. منذ عام 2009، عندما عاد نتنياهو إلى السلطة، كانت إسرائيل تُحكم من قِبل حكومات يمينية معادية لدولة فلسطينية. أشارت استطلاعات الرأي إلى أن التقدميين الأمريكيين - وخاصةً الشباب منهم - يزدادون انتقادًا لإسرائيل. وعلى الرغم من قلة نفوذهم في واشنطن، إلا أن منظمات معادية للصهيونية، مثل "طلاب من أجل العدالة في فلسطين(SJP) "، و"صوت اليهود من أجل السلام(JVP) "، و"مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية(CAIR) "، كانت تُحقق اختراقات في صفوف اليسار النشط. بالنسبة للجماعات المؤيدة لإسرائيل، أدى كل هذا إلى موجة جديدة من معاداة السامية اليسارية.

في عام 2022، أدان جوناثان غرينبلات، من رابطة مكافحة التشهير، "طلاب من أجل العدالة في فلسطين" و"صوت اليهود من أجل السلام" و"مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية" بالاسم. وجادل قائلًا: "هذه الجماعات تُجسد اليسار الراديكالي، وهو الوجه الآخر لليمين المتطرف الذي طالما تتبعته رابطة مكافحة التشهير". وكانت هذه الحجة نفسها التي ساقها أسلافه قبل نصف قرن: تُشكل معاداة السامية الآن تهديدًا خطيرًا على اليسار كما هو الحال على اليمين.

بعد عقود من التكرار، أصبحت أطروحة "معاداة السامية الجديدة" فكرةً شائعة. يُصرّ المسؤولون والصحفيون والسياسيون اليهود باستمرار على أن معاداة السامية تُشكل مشكلةً خطيرةً بين التقدميين كما هي بين المحافظين. لكن البحث الأكاديمي لا يدعم هذا الرأي عمومًا. يميل إلى تأكيد الرأي القديم الذي تبنته الجماعات اليهودية الأمريكية في خمسينيات

وستينيات القرن الماضي: معاداة السامية - مثل العديد من أشكال التعصب الأخرى - أعلى بكثير بين المحافظين.

في عام 2022، نشر عالما السياسة، إيتان هيرش ولورا رويدن، الدراسة الأكثر شمولًا على الإطلاق حول العلاقة بين آراء الأمريكيين حول السياسة وآرائهم حول اليهود. ووجدا أن "الآراء المعادية للسامية أكثر شيوعًا بين اليمين منها بين اليسار". في دحضٍ مباشر لأطروحة "معاداة السامية الجديدة"، أظهر هيرش ورويدن أن الغالبية العظمى من التقدميين يميزون مشاعرهم تجاه إسرائيل عن مشاعرهم تجاه اليهود الأمريكيين.

في الواقع، دعا الباحثان التقدميين إلى ربط الاثنين، لكنهم لم يجدوا الكثير من المستجيبين: "حتى مع تزويدهم بمعلومات تفيد بأن معظم يهود الولايات المتحدة لديهم آراء إيجابية تجاه إسرائيل - وهي دولة لا يفضلها اليسار الأيديولوجي - نادرًا ما يدعم المستجيبون اليساريون تصريحات مثل أن اليهود يتمتعون بسلطة كبيرة أو يجب مقاطعتهم". لم يدّعِ هيرش ورويدن عدم وجود علاقة بين معاداة السامية ومعاداة الصهيونية. لكنهما أشارا إلى أن الأمريكيين الذين أيدوا معاقبة اليهود الأمريكيين على أفعال إسرائيل كانوا أكثر ميلًا إلى أن يكونوا من اليمين الأيديولوجي.

في عامي 2019 و2020، توصل باحثون في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس إلى نتيجة مماثلة. سألوا مئات الآلاف من الأمريكيين عن مواقفهم تجاه اليهود وموقفهم من المساعدات العسكرية لإسرائيل. كان لدى الجمهوريين الذين عارضوا المساعدات العسكرية آراء سلبية تجاه اليهود أكثر من أولئك الذين أيدوها. ولكن بين الديمقراطيين، لم يكن هناك أي ارتباط يُذكر. كان الديمقراطيون الذين عارضوا مبيعات الأسلحة لإسرائيل ميالين بشكل إيجابي تجاه اليهود تقريبًا مثل الديمقراطيين الذين أيدوهم. بين التقدميين، لم تكن الآراء حول السياسة الأمريكية تجاه الدولة اليهودية والآراء حول اليهود تسير جنبًا إلى جنب.

في أوروبا أيضًا، تشير الأبحاث إلى أن معاداة السامية أعلى بين المحافظين. أشارت دراسة أجريت عام 2018 حول المواقف تجاه الهجرة اليهودية في عشرين دولة أوروبية إلى أنه في حين أن المسلمين لديهم آراء سلبية تجاه اليهود أكثر من غير المسلمين، فإن معاداة السامية كانت أعلى بكثير لدى اليمين منها لدى اليسار. وجدت دراسة أجريت عام 2021 على ست عشرة دولة أوروبية أن أفضل مؤشر على معاداة السامية هو كراهية الأجانب. كان الأوروبيون الذين يحملون أكثر الآراء سلبية تجاه العرب والأفارقة والمسلمين يحملون أيضًا أكثر الآراء سلبية تجاه اليهود.

هذا لا يعني أن الأشخاص المعادين لإسرائيل لا يمكن أن يكونوا أيضًا معادين لليهود. وكما تشير دراسات هيرش ورويدن وجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، فإن العداء اليميني لإسرائيل - من النوع الذي ارتبط سابقًا ببات بوكانان وديفيد ديوك والذي يدافع عنه الآن قوميون بيض مثل نيك فوينتس - غالبًا ما يكون معاديًا للسامية. وبينما يكون التقدميون أقل ميلًا إلى تبني آراء معادية لليهود من المحافظين، فإن انتقاداتهم لإسرائيل لا تزال تستخدم

أحيانًا نفس النوع من المجازات المعادية للسامية التي يستخدمها مادورو ولجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية.

أحد هذه المقولات هو أن اليهود غير موالين للأمم التي نعيش فيها. نحن نهتم فقط بأوطاننا. وجدت دراسة هيرش ورويدن أن ما يقرب من 20 في المائة من الأمريكيين يعتقدون أن اليهود الأمريكيين أكثر ولاءً لإسرائيل مما هم عليه للولايات المتحدة. يساعد هذا التعريف لليهود بإسرائيل في تفسير سبب ميل الحوادث المعادية للسامية إلى الارتفاع في خضم الاحتجاج العالمي.

وجدت ثلاث دراسات منفصلة أجريت بين عامي 2001 و2014 - واحدة في بلجيكا، وواحدة في أستراليا، وواحدة في الولايات المتحدة - علاقة واضحة: عندما تقتل إسرائيل المزيد من الفلسطينيين، يبلغ اليهود في جميع أنحاء العالم عن المزيد من التمييز والإساءة.

على نطاق واسع، هذا ما حدث بعد أكتوبر. في الأشهر الأربعة تقريبًا بين 7 أكتوبر و30 يناير، فتح مكتب التحقيقات الفيدرالي ثلاثة أضعاف عدد التحقيقات في جرائم الكراهية ضد اليهود مقارنة بالأشهر الأربعة التي سبقت الهجوم. لقد لمحت هذا الارتفاع عندما تحدثت في أوائل عام 2024 في كلية للفنون الحرة حيث كانت المشاعر مناهضة بشدة للحرب. أخبرني العديد من الطلاب اليهود أنهم يخشون النبذ إذا أعلنوا دعمهم لإسرائيل. في حد ذاته، لا يُشكل هذا التعصب الأيديولوجي معاداة للسامية. من المرجح أن يُعامل طالب مسيحي أو حتى مسلم أيد إسرائيل علنًا بنفس الطريقة. لكن أحد الشباب روى أنه وُصف بالصهيوني لأنه كان يرتدي الكيبا، مما يُظهر كيف يُمكن أن يختلط الخط الفاصل بين معاداة الصهيونية ومعاداة السامية. ربطه أحد زملائه الطلاب بإسرائيل لأنه يهودي.

كان تصاعد معاداة السامية بعد 7 أكتوبر جزءًا من تقليد قبيح ليس فقط في التاريخ اليهودي ولكن في التاريخ الأمريكي أيضًا. عندما يصبح الأمريكيون عدائيين تجاه حكومة أو حركة أجنبية، فإنهم غالبًا ما يلقون باللوم على الأمريكيين الذين يتشاركون العرق أو الدين مع الجهة الخارجية التي يحتقرونها. تعرض الأمريكيون الألمان للإرهاب خلال الحرب العالمية الأولى. تم اعتقال الأمريكيين اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية. تعرض الأمريكيون المسلمون للاضطهاد بعد 11 سبتمبر. تعرض الصينيون وغيرهم من الأمريكيين الآسيويين للاعتداء خلال جائحة كوفيد. وبينما صب بعض الأمريكيين بعد 7 أكتوبر غضبهم على إسرائيل على اليهود الأمريكيين، صب آخرون غضبهم على حماس على الأمريكيين الفلسطينيين والعرب والمسلمين.

أغفلت وسائل الإعلام عمومًا هذه التشابهات التاريخية لأن إسرائيل - على عكس ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، أو اليابان خلال الحرب العالمية الثانية، أو الصين اليوم - هي حليف أمريكا. لكنها حليف مكروه بشدة من قبل شريحة من سكان الولايات المتحدة. كما اكتشف هيرش ورويدن في دراسة منفصلة، ينظر الشباب الأمريكيون ذوو الميول اليسارية إلى إسرائيل بنفس النظرة السلبية التي ينظرون بها إلى روسيا وإيران. الكراهية لإسرائيل نادرة

لدى اليمين، لكنها موجودة، وغالبًا ما تكون متجذرة في معاداة السامية. لذا، أصبح اليهود آخر حلقة في سلسلة طويلة من الأمريكيين الذين يعانون لارتباطهم بدولة أجنبية يكرهها بعض الأمريكيين الآخرين.

يجب أن يكون الرد على هذا التعصب واضحًا: الأمريكيون ليسوا مسؤولين عن الحكومات أو المنظمات الأجنبية لمجرد أن لديهم أصلًا مشتركًا. لم يكن هناك أي شيء متأصل في كونك أمريكيًا ألمانيًا في العقد الأول من القرن العشرين يجعلك مؤيدًا لألمانيا القيصرية، ولا أي شيء متأصل في كونك أمريكيًا يابانيًا في الأربعينيات يجعلك مؤيدًا لليابان الإمبريالية. وبالمثل، لا يوجد أي شيء متأصل في كونك أمريكيًا صينيًا اليوم يجعلك مؤيدًا لجمهورية الصين الشعبية أو في كونك أمريكيًا فلسطينيًا يجعلك مؤيدًا لحماس.

إن دعم الحكومات أو المنظمات الأجنبية خيار سياسي، وليس تعبيرًا جوهريًا عن الهوية العرقية أو الدينية للفرد. هذا التمييز أساسي لمكافحة معاداة السامية المرتبطة بالغضب من إسرائيل. يجب أن نطالب منتقدي إسرائيل بالتمييز بوضوح بين الدولة الأجنبية ومواطنيها اليهود. ولكن يجب علينا أيضًا أن نميز بيننا. وفي الغالب، لا يفعل القادة اليهود ذلك. في الأوساط اليهودية الأمريكية الراسخة، لا يُصوَّر دعم إسرائيل كخيار سياسي، بل كجزء لا يتجزأ من الهوية اليهودية. وقد صرّح غرينبلات، من رابطة مكافحة التشهير، في نوفمبر 2023: "الصهيونية جوهر اليهودية."

في أبريل، خلال جلسة استماع حول معاداة السامية في الجامعات، أشارت النائبة كاثي مانينغ، الرئيسة السابقة للاتحادات اليهودية في أمريكا الشمالية، إلى "الدور المركزي الذي تلعبه إسرائيل في اليهودية". هذه التصريحات ليست متناقضة فحسب - فاليهودية وُجدت لآلاف السنين قبل ولادة الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل - بل هي خطيرة أيضًا. ولأن اليهودية ودولة إسرائيل منفصلتان تحديدًا، فلا ينبغي لوم اليهود على أفعال إسرائيل. ووفقًا لمنطق غرينبلات ومانينغ، لا فرق بين كتابة "فلسطين حرة" على جدران سفارة إسرائيلية وكتابتها على جدران كنيس يهودي، فكلاهما، في جوهره، مؤسستان صهيونيتان. اليهود ليسوا مسؤولين أبدًا عن معاداة السامية. ومع ذلك، فنحن مسؤولون عن محاربتها بحكمة. والخلط بين إسرائيل واليهودية يؤدي إلى عكس ذلك تمامًا.

ولكن إذا كان الخلط بين إسرائيل واليهودية وسيلة سيئة للدفاع عن اليهود، فهو وسيلة فعالة لتشويه سمعة الفلسطينيين لأنه يحوّل معارضة الفلسطينيين للصهيونية من رد فعل طبيعي على القمع إلى شكل من أشكال التعصب.

خلال حرب غزة، لم تبذل أي جماعة جهدًا أكبر لتصوير الفلسطينيين ومناصريهم على أنهم متعصبون أكثر من رابطة مكافحة التشهير. فقد سجلت أكثر من ضعف عدد الحوادث المعادية للسامية في عام 2023 مقارنةً بالعام الذي سبقه. لا تتعلق غالبية أمثلة رابطة مكافحة التشهير بإسرائيل - على سبيل المثال، رسم صليب معقوف في حمام مدرسة - وبعض تلك التي تتعلق بإسرائيل معادية للسامية بشكل واضح. على سبيل المثال، أفادت رابطة مكافحة التشهير أنه

بعد 7 أكتوبر بقليل، صرخ أحدهم قائلًا: "اللعنة على اليهود، حرروا فلسطين" في وجه أشخاص يبدو عليهم أنهم يهود في واشنطن العاصمة أثناء عودتهم إلى منازلهم يوم السبت.

ومع ذلك، فإن العديد من الحوادث المتعلقة بإسرائيل التي تصفها رابطة مكافحة التشهير بمعاداة السامية ليست موجهة ضد اليهود في حد ذاتهم. اثنان وأربعون بالمائة منها تتضمن خطابًا معاديًا للصهيونية عُبِّر عنه بعد 7 أكتوبر. ومن الشعارات التي تستشهد بها رابطة مكافحة التشهير بشكل متكرر شعار "من النهر إلى البحر، فلسطين ستتحرر"، الذي تعتبره "تهمة معادية للسامية تنكر حق اليهود في تقرير المصير، بما في ذلك من خلال تهجير اليهود من وطنهم الأصلي". فهل يُشبّهه وزير خارجية إسرائيل بـ"دعوة إلى إبادة الشعب اليهودي في إسرائيل؟". ينكر العديد من الباحثين الفلسطينيين ذلك، ويؤكدون أن الشعار يستحضر الرؤية الديمقراطية التي دافع عنها القوميون الفلسطينيون قبل أن تقبل منظمة التحرير الفلسطينية تقسيم الأرض إلى دولتين.

ففي عام 1970، على سبيل المثال، أصدرت حركة فتح، الحزب الأكثر نفوذًا في منظمة التحرير الفلسطينية، سلسلة من المقالات التي تصورت "دولة ديمقراطية واحدة في فلسطين" - من النهر إلى البحر - لكنها رفضت طرد اليهود واقترحت جعل العبرية والعربية لغتين رسميتين. ووصفت عضو الكونغرس رشيدة طليب، التي انتقدها مجلس النواب لاستخدامها هذه العبارة، بأنها "دعوة طموحة إلى الحرية وحقوق الإنسان والتعايش السلمي".

من الواضح أن معنى هذا التعبير يختلف باختلاف الأشخاص. فقد أظهر استطلاع للرأي أجرته جامعة شيكاغو في مارس 2024 أن 66% من طلاب الجامعات اليهود الأمريكيين - مقابل 14% من الطلاب المسلمين - يفسرونه على أنه "يجب أن يحل الفلسطينيون محل الإسرائيليين في المنطقة، حتى لو أدى ذلك إلى طرد أو إبادة اليهود الإسرائيليين". لا سبيل لإثبات صحة هذا الرأي. لكن أفضل طريقة لمحاولة ذلك هي ببساطة سؤال مستخدميه. على حد علمي، لم تفعل رابطة مكافحة التشهير (ADL) ولا أي منظمة أخرى مؤيدة لإسرائيل ذلك من قبل.

وإلى حد ما، لا يكترثون. حتى لو أيد النشطاء بأغلبية ساحقة رؤية طليب لفلسطين قائمة على المساواة والتعايش السلمي، فلن يغير ذلك من تفكيرهم. بالنسبة للقادة اليهود في الولايات المتحدة وإسرائيل، من البديهي أنه بدون دولة يهودية، لا يمكن لليهود الإسرائيليين أن يكونوا آمنين. ما يجعل نفور رابطة مكافحة التشهير من عبارة "من النهر إلى البحر" مثيرًا للسخرية هو وجود دولة بالفعل تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر الأردن. يستخدم القادة الإسرائيليون تعبيرات مماثلة، طوال الوقت، لوصف الأراضي التي يحكمونها. ينص الميثاق التأسيسي لحزب الليكود بزعامة نتنياهو على أنه "لن تكون هناك سوى سيادة إسرائيلية بين البحر ونهر الأردن". وبينما يمكن لرابطة مكافحة التشهير التكهن بكيفية معاملة الدولة الفلسطينية الممتدة من النهر إلى البحر لليهود، فإن معاملة إسرائيل للفلسطينيين ليست افتراضية. فقد نشأت إسرائيل بتهجير ما يقرب من 750 ألف فلسطيني عام 1948، وهجّرت

مئات الآلاف عام 1967، عندما وسّعت حدودها من النهر إلى البحر. يفتقر معظم الفلسطينيين الخاضعين للسيطرة الإسرائيلية إلى الجنسية، ولا يتمتع أي منهم بالمساواة القانونية.

تُتهم إسرائيل الآن بالإبادة الجماعية في محكمة العدل الدولية، وهي تهمة أيدها بعض أبرز محامي حقوق الإنسان في العالم.

بعبارة أخرى، بين النهر والبحر، ارتكبت إسرائيل بالفعل، أو ترتكب، نفس الانتهاكات التي تتهم رابطة مكافحة التشهير ووزارة الخارجية الإسرائيلية النشطاء الفلسطينيين بالرغبة في ارتكابها. إنه عمل إسقاطي ملحوظ. لكنه يخدم غرضًا. إن وصف الشعار بأنه معادٍ للسامية - حتى معادٍ للسامية بشكل إبادة جماعية - يصرف انتباه الرأي العام عن كيفية معاملة إسرائيل للفلسطينيين الآن، وخاصة في غزة، ويعيد توجيه الانتباه نحو كيفية معاملة الفلسطينيين لليهود لو كانوا في السلطة. إنه يستبدل القهر الفعلي الذي يعانيه الفلسطينيون كشعب مضطهد بالقهر النظري الذي قد يعانيه اليهود لو كان الوضع على العكس.

هناك ازدواجية معايير مماثلة فيما يتعلق بمسألة العنف. في سجلها للحوادث المعادية للسامية، تُدرج رابطة مكافحة التشهير شعارات تتضمن كلمة "مقاومة" أو "انتفاضة". على سبيل المثال، "عندما يُحتل الشعب، تُبرر المقاومة" أو "عاشت الانتفاضة."

ومثل عبارة "من النهر إلى البحر"، تُعدّ هذه العبارات غامضة. فالمقاومة قد تكون مسلحة أو غير مسلحة. وحتى لو كانت مسلحة، يُمكنها احترام القانون الدولي أو انتهاكه، لأن الشعوب الواقعة تحت الاحتلال -سواءً في أوكرانيا أو الضفة الغربية- لها الحق في مقاومة الجيوش الأجنبية عسكريًا، ولكن ليس لها الحق في استهداف المدنيين. وبالمثل، تعني كلمة "انتفاضة" الانتفاضة. إنها لا تعني الانتفاضة ضد اليهود؛ بل تعني الانتفاضة ضد أي أحد. وهي الكلمة التي استخدمتها الصحف العربية للإشارة إلى احتجاجات باريس عام 1968 ومصر عام 2011. ووفقًا للموقع الإلكتروني العربي لمتحف الهولوكوست التذكاري الأمريكي، فإن الكلمة العربية لانتفاضة غيتو وارسو هي "انتفاضة".

لقد اندلعت انتفاضتان فلسطينيتان ضد إسرائيل. الأولى، في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، كانت غير مسلحة إلى حد كبير. وخلال الثانية، في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، قتل المقاتلون الفلسطينيون ألف إسرائيلي في تفجيرات انتحارية وهجمات أخرى.

يُمثل غموض هذه المصطلحات مشكلة. كانت عواقب السابع من أكتوبر/تشرين الأول وقتًا غير مناسب على الإطلاق لشعارات تطمس الخط الفاصل بين أشكال المقاومة المختلفة. بعد أن تعمد مقاتلو حماس قتل المدنيين وتشويههم واختطافهم والاعتداء عليهم جنسيًا، أتمنى لو أن المزيد من النشطاء المؤيدين للفلسطينيين قد التزموا بوضوح بقواعد الحرب. أتمنى لو أنهم اعترفوا بأنه، من الناحية الأخلاقية، ليست كل الانتفاضات متشابهة.

يُشكل هذا الرفض للاعتراف بأن الإسرائيليين اليهود يستحقون حماية القانون الدولي شكلاً من أشكال التجريد من الإنسانية. إذا كان الإسرائيليون اليهود مستوطنين لأن دولتهم شردت السكان الأصليين، فإن الأمريكيين والكنديين والأستراليين والأرجنتينيين وغيرهم كثيرون كذلك. إذا تنازل المدنيون الإسرائيليون اليهود عن حقهم في الحياة بسبب هذه الخطيئة، فهذه معاداة للسامية. ولكن إذا كان من الخطأ تأييد العنف ضد المدنيين الإسرائيليين، فإن تأييد العنف ضد المدنيين الفلسطينيين خطأ أيضًا.

بالنظر إلى ما فعلته إسرائيل بغزة، فإن الشعارات المؤيدة لإسرائيل مثل "لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها" و"أنا أقف مع جيش الدفاع الإسرائيلي" لا تقل خطورة عن شعارات "الانتفاضة" أو "المقاومة مبررة". ومع ذلك، لا يمانع القادة اليهود في ذلك. يقول بعض اليهود إن المعيار الحاسم لتحديد ما إذا كان شعار مثل "من النهر إلى البحر" أو "الانتفاضة" يُشكل تهديدًا هو ما إذا كان معظم اليهود يعتقدون ذلك. ولكن إذا كان هذا هو المعيار، فلماذا لا يُحدد الفلسطينيون ما إذا كانت الشعارات المؤيدة لإسرائيل تُشكل تهديدًا لهم؟

إن ازدواجية المعايير ليست وليدة الصدفة. فالهدف الأساسي من خلط معاداة الصهيونية بمعاداة السامية هو تصوير الفلسطينيين ومناصريهم كمتعصبين، مما يحول الحديث عن اضطهاد الفلسطينيين إلى حديث عن اضطهاد اليهود.

انظروا إلى الطريقة التي يتحدث بها القادة اليهود عن الجامعات الأمريكية. في أبريل 2024، زعم نتنياهو أن "عصابات معادية للسامية سيطرت على جامعات رائدة". وادعى أنهم "يهاجمون الطلاب اليهود؛ يهاجمون أعضاء هيئة التدريس اليهود. وهذا يذكرنا بما حدث في الجامعات الألمانية في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي."

لقد وقعت بالفعل هجمات على اليهود في الجامعات الأمريكية. فقد وجدت دراسة أجرتها منظمة هيليل الدولية في مايو 2024 أن 17% من الطلاب اليهود قالوا إنهم تعرضوا لمضايقات لفظية نتيجة للاحتجاجات المؤيدة للفلسطينيين، وأن 7% قالوا إنهم تعرضوا لاعتداءات جسدية. وفي جامعة كورنيل، هدد طالب بطعن واغتصاب زملائه اليهود. في جامعة جورجيا، تعرض طالب يهودي لهجوم من شخص قال له: "أيها الإسرائيلي، سأقتلك أنت وجميع أفراد عائلتك". وأثناء سؤالهما عما إذا كانا يهوديين، تعرض طالبان من جامعة ولاية أوهايو للاعتداء خارج حانة.

أطفالي في نفس عمر هؤلاء الطلاب تقريبًا، وهم يُظهرون يهوديتهم بطرق عديدة. في عصر تصاعد معاداة السامية، أشعر بالقلق بطبيعة الحال على سلامتهم. لكن تصوير نتنياهو للجامعات الأمريكية لا يزال سخيفًا. إنه سخيف لأنه على الرغم من أن إسرائيل أصبحت غير شعبية بشدة بين الطلاب التقدميين الذين يعتبرهم معادين للسامية، إلا أن البيانات واضحة: الغالبية العظمى من التقدميين في الجامعات يميزون بين اليهود وإسرائيل.

عندما أجرى هيرش استطلاعًا لآراء طلاب الجامعات في فبراير 2024، وجد النمط نفسه الذي لاحظه هو ولورا رويدن في البلاد ككل: معاداة سامية شديدة لدى فئة قليلة جدًا من اليسار.

وأشار هيرش إلى أن "أقلية كبيرة من الشباب اليمينيين تؤيد تصريحات تحمل تحيزًا صريحًا ضد اليهود". لكن "نادرًا ما يتفق أي شخص في اليمين مع هذا الرأي". على الرغم من آرائهم السلبية في كثير من الأحيان تجاه إسرائيل، إلا أن حوالي 5% فقط من الطلاب اليساريين وافقوا على أن "جميع المدنيين الإسرائيليين يجب اعتبارهم أهدافًا مشروعة لحماس". توصلت دراسة جامعة شيكاغو إلى نفس النتيجة. فقد وجدت أنه في حين أن طلاب الجامعات كانوا أكثر عرضة بثلاث مرات من الأمريكيين ككل لمعارضة الصهيونية، إلا أنهم كانوا في الواقع أقل ميلًا لتأكيد تصريحات معادية للسامية مثل "لليهود سلطة كبيرة" و"عندما يتعرض اليهود لهجوم عنيف، فذلك لأنهم يستحقون ذلك". وخلص المؤلفون إلى أن "غضب الحرم الجامعي اليوم موجه بشكل أساسي ضد إسرائيل كدولة وليس ضد الشعب اليهودي بحد ذاته."

هذا لا يعني أن الطلاب اليهود يجدون الحياة الجامعية. بالنسبة لأولئك الذين نشأوا في بيئات مؤيدة لإسرائيل، يمكن أن تكون معاداة الصهيونية مؤلمة حتى عندما لا تنطوي على عداء تجاه اليهود. لقد أصبح العداء لإسرائيل منتشرًا جدًا في الدوائر التقدمية لدرجة أن الطلاب الصهاينة يشعرون أحيانًا بأنهم منبوذون أيديولوجيًا. هذا العداء لا يأتي من العدم. من الصعب مطالبة الفلسطينيين بالاهتمام بمشاعر الطلاب المؤيدين لإسرائيل بينما تذبح إسرائيل وتجوع عائلاتهم. ومع ذلك، أتمنى أن يعترف النشطاء اليساريون في كثير من الأحيان بوجود تقليد للصهيونية الثقافية، الذي دافع عنه في منتصف القرن العشرين شخصيات مثل مارتن بوبر ويهوذا ماغنيس، والذي أراد ثقافة يهودية مزدهرة في فلسطين-إسرائيل لكنه عارض الدولة اليهودية.

أتمنى لو كان لدى النشطاء اليساريين تعاطف أكبر مع الصدمة التاريخية التي تدفع العديد من الشباب اليهود، وخاصةً أولئك الذين لم يمضِ على معاداة السامية التي ترعاها الدولة سوى جيل واحد، إلى دعم الصهيونية حتى في شكلها الدولتي. وليس من قبيل المصادفة أن بعضًا من أكثر النشطاء الصهيونيين صراحةً في الجامعات الأمريكية هم يهود هاجر آباؤهم من إيران. ويشير الكاتب الاشتراكي دانيال راندال إلى أنه "بدلاً من فهم صهيونية الشتات والتقارب مع إسرائيل على أنهما من مخلفات التاريخ المروع الذي تعرض له اليهود خلال القرن العشرين وما قبله، فإن الكثير من اليساريين يعاملونهما كخطيئة مميتة."

هذه ليست الطريقة التي يعامل بها اليساريون عمومًا أفراد الأقليات الأخرى الذين نشأوا على معتقدات إقصائية وغير ليبرالية. نادرًا ما نسمع عن طلاب من جنوب آسيا مُنعوا من الانضمام إلى جماعاتهم البيئية أو جماعات مجتمع الميم في حرمهم الجامعي لتعاطفهم مع النسخة المعادية بشدة للمسلمين من القومية الهندوسية التي ينتهجها رئيس الوزراء ناريندرا مودي. إن معاملة الطلاب الصهاينة كمنبوذين أمر غير عادل وغير مُجدٍ. أفضل طريقة

لإقناع الطلاب اليهود بأن سلامتهم لا تتطلب التفوق اليهودي هي عدم وصمهم. دكتور ديسنيب، بل التحدث إليهم.

لكن يجب أن يكون الطلاب الصهاينة على استعداد للاستماع، حتى عندما يكون ذلك مؤلمًا. يجب أن يُميزوا بين الشعور بعدم الراحة والشعور بعدم الأمان. عندما أتحدث في الحرم الجامعي، غالبًا ما ألاحظ نمطًا: الطلاب اليهود الذين قضوا معظم وقتهم في الاستماع إلى الفلسطينيين - من خلال أخذ دروس في التاريخ الفلسطيني، أو حضور فعاليات مع متحدثين فلسطينيين، أو مجرد التعرف على زملائهم الفلسطينيين -هم الأقل احتمالًا لمساواة معاداة الصهيونية بمعاداة السامية. تساعدهم هذه التفاعلات على فهم سبب كراهية الفلسطينيين ومؤيديهم لإسرائيل دون كراهية اليهود.

بذلك، يكتسبون أيضًا تعاطفًا مع الفلسطينيين الذين يُشيطنونهم. لأن المفارقة القاتمة في ادعاء نتنياهو بأن الجامعات الأمريكية والطلاب المؤيدين للفلسطينيين تشبه الجامعات الألمانية خلال الرايخ الثالث، هي أن الطلاب وأعضاء هيئة التدريس الأكثر عرضة للخطر هم الفلسطينيون ومؤيدوهم. فهم يُعاقبون ويُسكتون، بل ويُضربون بشكل روتيني، كل ذلك باسم الحفاظ على سلامة اليهود.

في الأسابيع والأشهر التي تلت 7 أكتوبر، طافت شاحنات تحمل أسماء ووجوه ناشطين مؤيدين للفلسطينيين حول تسع جامعات على الأقل. وفي عدة حالات، عُرضت أمام منازل الطلاب. وسُحبت عروض عمل من العديد من الطلاب المؤيدين للفلسطينيين - كل ذلك بسبب التعبير عن آراء لا تدعم العنف أكثر من تلك التي يُعبر عنها عادةً الطلاب المؤيدون لإسرائيل الذين أيدوا الحرب. كان الطلاب المؤيدون لفلسطين أكثر عرضة للإيقاف عن الدراسة من نظرائهم المؤيدين لإسرائيل، وكانت منظماتهم أكثر عرضة للحظر، حتى في غياب أدلة على تصرفهم بعنف أكبر. على العكس من ذلك، وجدت دراسة أجراها مشروع بيانات مواقع وأحداث الصراعات المسلحة في مايو 2024 أن 97 في المائة من الاحتجاجات المؤيدة للفلسطينيين في الولايات المتحدة منذ 7 أكتوبر كانت سلمية.

وبأي مقياس، في الواقع، فقد تعرض الطلاب وأعضاء هيئة التدريس الفلسطينيون والمؤيدون لفلسطين لعنف أكبر بكثير مما تسببوا فيه. فقد تم رش المتظاهرين المؤيدين لفلسطين بمادة كيميائية تسبب الغثيان في جامعة كولومبيا في يناير، في هجوم أرسل ما لا يقل عن عشرة طلاب إلى المستشفى؛ وتعرضوا للضرب بالعصي من قبل المهاجمين الذين هدموا مخيمهم في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس في أبريل؛ وصدمتهم سيارة أثناء احتجاجهم أمام منزل أمين جامعة كولومبيا في واشنطن في مايو. في أبريل، كسرت الشرطة ضلوعًا في جامعة سانت لويس. وفي مايو، جرحت رأس عالم اجتماع أمريكي من أصل فلسطيني في جامعة ويسكونسن. ولعلّ من أغرب المفارقات أن بعض النشطاء المؤيدين للفلسطينيين الذين عانوا من هذا العنف والقمع كانوا يهودًا.

في دارتموث، قيدت الشرطة رئيسة سابقة لبرنامج الدراسات اليهودية وألقتها أرضًا عندما صوّرتهم وهم يعتقلون طلابًا في مخيم مؤيد للفلسطينيين. علّقت جامعة كولومبيا فرعها في جماعة "الصوت اليهودي من أجل السلام" المناهضة للصهيونية. ردّت رابطة مكافحة التشهير بالثناء على رئيسة دارتموث لاستدعائها سلطات إنفاذ القانون، وهنأت رئيسة كولومبيا على عملها "لحماية الطلاب اليهود" - على الرغم من أنها علّقت للتوّ منظمة مؤلفة من طلاب يهود. كانت هذه هي النتيجة المنطقية لإصرار غرينبلات على أن الصهيونية واليهودية لا ينفصلان: ارفض الصهيونية ولن تعود يهوديًا. أنت فلسطيني فخري، وبالتالي لا يمكنك إلا تهديد اليهود، لا أن تُهدد نفسك. تصبح سلامتك لا غنى عنها.

هذا ينطبق بشكل أكبر على الفلسطينيين، وخاصة في غزة. فالقطاع نفسه يضم طلابًا جامعيين - الكثير منهم. التعليم من بين الأشياء القليلة التي يمكن لسكان غزة التحكم فيها، وهم يُكرسون أنفسهم له بحماس. صرّح زاهر كحيل، مؤسس ورئيس جامعة فلسطين في غزة السابق، لصحيفة لوموند: "لقد بنينا بنى تحتية أكاديمية بعرقنا ودمائنا وتبرعاتنا". على الرغم من الفقر المدقع في غزة، يُشكل طلاب الجامعات 4% من سكانها، وهي نفس النسبة تقريبًا في المملكة المتحدة.

في تبريرها لتعليق جامعة كولومبيا لنشاط جبهة التحرير الشعبية، أعلنت رابطة مكافحة التشهير في 10 نوفمبر أن "أساليب الترهيب لا مكان لها في الحرم الجامعي". قبل ذلك بأيام، شنت إسرائيل هجومها الثاني على جامعة الأزهر في غزة. وأظهرت مقاطع فيديو مبانيها وقد غطتها سحب كثيفة من الدخان. وبحلول فبراير، ووفقًا لليونسكو، ألحقت إسرائيل أضرارًا باثنتي عشرة مؤسسة للتعليم العالي في غزة.

في أبريل 2024، تواصلت صحيفة نيويورك تايمز مع خريجي دفعة 2023 من كلية طب الأسنان بجامعة الأزهر. قُتل اثنان منهم، أسيل طايع ونور ياغي، في غارات جوية إسرائيلية. اختفت شقيقة مديحة الشياح؛ وترقد جدتها ميتة تحت الأنقاض. عُثر على جثة عم علا سلامة مقطوعة الرأس والقدمين بعد أن قصفت إسرائيل منزله. فقد مازن الوحيدي ستة وأربعين رطلاً من وزنه، وكان يأكل علف الحمير.

كانت نور شحادة تعيش على الأعشاب البرية. نزحت رابحة نبيل وعائلتها خمس مرات، وعادوا في النهاية إلى منزلهم ليجدوه بلا جدران. تمكنت أريج الأسطل من الولادة رغم قلة الطعام التي لم تزد وزنها خلال حملها. لقي أكثر من مئة فرد من عائلتها الكبيرة حتفهم. وقالت لصحيفة التايمز: "انتهت كلمة "أحلام". لم تعد موجودة في مخيلتنا."

فيما بينها، ذكرت حسابات رابطة مكافحة التشهير، واللجنة اليهودية الأمريكية، والحكومة الإسرائيلية، ورئيس الوزراء الإسرائيلي طلاب الجامعات أكثر من أربعمائة مرة بين 7 أكتوبر 2023 و4 يونيو 2024. ولم يتطرقوا ولو لمرة واحدة إلى معاناة الطلاب في قطاع غزة.

أبناء قورح

نحن أبناء قورح[11]. يظهر في سفر العدد، بعد أن ساءت رحلة بني إسرائيل عبر الصحراء بشكل كبير. جمع قورح جماعة من المتمردين ضد موسى وأخيه هارون، واتهمهم بالنخبوية. أعلن قورح: "كل الجماعة مقدسة، والله في وسطهم". "فلماذا إذن ترتفعون فوق جماعة الله؟" أجاب موسى بإعداد اختبار. ليرى من يحظى بالرعاية الإلهية، قدم بخورًا لله، وجعل المتمردين يفعلون الشيء نفسه. ظهر الله وابتلعت الأرض قورح كاملًا. انتهى الصراع.

لكن يبقى السؤال: ما الخطأ الذي ارتكبه قورح؟ هناك آراء عديدة. لكن الرأي الذي يجب أن يطاردنا يأتي من إشعياء ليبوفيتش، الناقد الاجتماعي الأرثوذكسي المتمرد الذي وصفه الفيلسوف إشعياء برلين بأنه "ضمير إسرائيل". ركز ليبوفيتش على استخدام قورح لكلمة "مقدس". وأشار إلى أن الله أمر موسى، قبل أربع آيات، أن يأمر بني إسرائيل "بحفظ جميع وصاياي، وأن يكونوا مقدسين لإلههم". وكانت القداسة مشروطة؛ إذ كانت تعتمد على حفظ الوصايا. على النقيض من ذلك، قال قورح إن بني إسرائيل كانوا قديسين بالفعل. لم يكن هذا معيارًا عليهم الالتزام به، بل كان متأصلًا في هويتهم.

ما جعل حجة قورح خطيرة للغاية، كما جادل ليبوفيتش، هو أنها أفسدت مفهومًا أساسيًا آخر في الكتاب المقدس العبري: الاختيار. بالنسبة لليبوفيتش ، كان من الضروري ألا يجعل اختيار الله اليهود أفضل من غيرهم. هذا يعني أن عليهم مجموعة خاصة من الواجبات - اتباع وصايا التوراة - وليس مجموعة خاصة من الفضائل. في الكتاب المقدس، لا يخبر الأنبياء الشعب اليهودي أنهم معصومون من الخطأ. بل يخبرونهم أن علاقتهم الفريدة بالله لا تُبرر أخطائهم أبدًا. يقول النبي عاموس، باسم الله: "إياك وحدك اخترت من بين جميع قبائل الأرض. لذلك سأحاسبك على خطاياك."

لكن عاموس ما كان ليحتاج إلى قول ذلك لو لم تكن رسالة قورح مغرية للغاية. من منا لا يغريه الادعاء بأن الاختيار - الذي يُسمى أحيانًا الانتخاب - يجعلك مقدسًا مهما كان؟ يشير الحاخام شاي هيلد، وهو عالم لاهوت معاصر بارز، إلى أن "الأنبياء أُجبروا باستمرار على محاربة تفسيرات الانتخاب التي ضمنت للناس الإفلات من العقاب وجعلتهم محصنين ضد النقد". منذ البداية، أراد بعض اليهود وضعنا فوق القانون.

اعتقد ليبوفيتش أن بدعة قورح تردد صداها عبر التاريخ اليهودي. تتبعها من خلال الشاعر والفيلسوف الإسباني يهوذا اللاوي في القرن الحادي عشر، والحاخام المعروف باسم مهرال براغ (يهوذا لوف بن بتسلئيل) في القرن السادس عشر، وعناصر من الفكر الحسيدي تعود إلى بولندا وأوكرانيا في القرن الثامن عشر.

يمكن للباحثين مناقشة ما إذا كانت هذه الشخصيات والحركات المتباينة تُشكل سلالة أيديولوجية متماسكة، ومدى الدعم الذي تحظى به وجهة نظرها في التوراة نفسها. ولكن حتى لو كان ليبوفيتز مُحقًا في أن الاستثنائية اليهودية تُشكل نزعة مُستمرة ومنحرفة في الفكر اليهودي في العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث، فإنها لن تُسبب ضررًا كبيرًا. فماذا

لو عزّى بعض الحالمين في إسبانيا المغاربية أو الشتيتل السيليزي أنفسهم بفكرة أن في أعماقنا شرارة إلهية خاصة؟ لم تكن لديهم القدرة على فعل أي شيء حيال ذلك.

تغير كل ذلك مع قيام إسرائيل. فقط عندما يسيطر اليهود على دولة - بسلطة حياة أو موت على ملايين غير اليهود - يُصبح ادعاء قورح بالقداسة اليهودية الجوهرية خطيرًا حقًا.

لفهم السبب، يجدر بنا أن نتذكر أن الكتاب المقدس يعتبر الدول - والتي كانت تعني في عصره الممالك - أمورًا بالغة الخطورة. فبينما قد تكون ضرورية لتجنب الفوضى، إلا أنها قد تُصبح بسهولة أدوات للقمع. عندما طلب شيوخ بني إسرائيل من النبي صموئيل ملكًا، أمره الله أن يلبي رغبتهم وأن يعدد الفظائع العديدة التي سيُنزلها الملك بهم.

يكون الملوك في أشدّ حالاتهم خطورةً عندما ينظرون إلى أنفسهم كما نظر قورح إلى بني إسرائيل: مقدسين بطبيعتهم، وبالتالي معصومين من الخطأ. عندما ينظرون إلى أنفسهم كآلهة. في التراث اليهودي، يُعدّ فرعون المثال الأبرز على ذلك، إذ لا ينفصل استبداده عن إيمانه بأنه إله. يحاول الكتاب المقدس منع الفراعنة اليهود من خلال الإصرار على أن الملوك اليهود فانون تمامًا. سلطتهم لا تنبع من أي تفوق فطري، بل تنبع من استعدادهم لاتباع شريعة الله.

في سفر التثنية، يُخبر موسى الشعب أن على ملك يهودي أن يُكلّف بكتابة مخطوطة توراة، وأن "يُراعي بإخلاص كل كلمة من هذا التعليم، وكذلك هذه الشرائع. وهكذا، لن يتكبر على رعيته". يقول التلمود إن الفرق بين الملك الصالح والفاسد هو أن الأول "يحكم ويُدان."

لم نعد نعيش في عصر الملوك اليهود. ومع ذلك، فقد تحقق كابوس ليبوفيتش: يعامل العديد من اليهود الدولة اليهودية بالطريقة التي خشي الكتاب المقدس أن يعامل بها الملوك اليهود أنفسهم: كقوة عليا، لا تخضع لأي معيار خارجي. مرارًا وتكرارًا، يُؤمرنا بقبول "حق الدولة اليهودية في الوجود". لكن هذه اللغة مُضللة. ففي التقاليد اليهودية، لا قيمة جوهرية للدول. الدول ليست على صورة الله، بل البشر. الدول مجرد أدوات. إما أن تحمي ازدهار الإنسان، أو أن تُدمره. إذا فعلوا ذلك، فيجب إعادة تشكيلهم لجعلهم أكثر احترامًا للحياة البشرية. شرعية الدولة اليهودية - مثل قداسة الشعب اليهودي - هي في حد ذاتها.

قد يردّ النقاد بأن هناك فرقًا شاسعًا بين إدانة قورح لتلميحه إلى أن الشعب اليهودي يستطيع تجاهل شريعة الله، وإدانة إسرائيل لتجاهلها القوانين الدولية التي وضعتها مؤسسات بشرية ناقصة كالأمم المتحدة والمحكمة الجنائية الدولية. إنها نقطة وجيهة. المعايير المحددة التي يجب أن تُحكم بها إسرائيل تخضع لنقاش معقول. ولكن لا بد من وجود معيار. عندما يتعلق الأمر بمعاملة إسرائيل لجميع الشعوب الخاضعة لسيطرتها، ونصفهم فلسطينيون، يجب أن يكون لدى اليهود مبدأ ثابت يسمح لنا بالقول: "هذا مُبالغ فيه".

إن الولاء الذي نشعر به تجاه بعضنا البعض، والذي يوصف أحياناً بأنه "أحبة إسرائيل"، لا يمكن أن يمنح إسرائيل حرية أخلاقية غير محدودة.

"أهفات إسرائيل ليست - ولا يمكن أن تكون المعادل الديني لـ "بلدنا"، سواء أكان على حق أم على باطل،" كما يجادل شاي هيلد. "لا يمكن أن يكون هناك لاهوت يهودي دون التزام أساسي بالتضامن الإنساني". إذا كنت تدعم دولة يهودية مهما فعلت بالفلسطينيين، فأنت تعاملها على أنها معصومة من الخطأ. أنت تسير على خطى قورح.

أتخيل أحيانًا طرح سلسلة من الأسئلة على المتحدثين باسم مجتمعنا: كم عدد الفلسطينيين الذين كان على إسرائيل قتلهم في غزة قبل أن تحث الولايات المتحدة على التوقف عن إرسال الأسلحة إليها؟ كم عدد السجناء الفلسطينيين الذين كان على إسرائيل تعذيبهم والاعتداء عليهم جنسيًا دون عقاب قبل أن تعترف بحق المحاكم الدولية في محاكمة القادة الإسرائيليين؟ كم من الوقت يجب أن يعيش فلسطينيو الضفة الغربية تحت القانون العسكري قبل أن تتوقف عن وصف إسرائيل بالديمقراطية؟

كم عدد منظمات حقوق الإنسان التي يجب أن تتهمها بالفصل العنصري قبل أن تشكك في مبدأ أن اليهود وحدهم هم من يحكمون؟ لقد خضت ما يكفي من نقاشات كهذه لأتوقع ردود الفعل. من المرجح أن تتضمن إشارات إلى حماس، والدروع البشرية، وإيران، ومعاداة السامية، إلى جانب تعبيرات الأسف لأن الواقع القاسي في الشرق الأوسط يُلزم إسرائيل بحماية نفسها بهذه الطرق المؤلمة. لكن الجواب الجوهري واضح: لا حدود. مهما سقط من الفلسطينيين، فإنهم لا يُغيرون الموازين، لأن قيمة الفلسطيني محدودة، وقيمة الدولة اليهودية لا حدود لها.

في التراث اليهودي مصطلح يُشير إلى استثمار القيمة العليا في غير الله. إنه "عبادة الأصنام". وهو من أخطر الخطايا في اليهودية، وواحد من ثلاث خطايا فقط يجب علينا تجنبها حتى لو كلّفنا ذلك حياتنا.

في التلمود، يُعرّف الحاخام يوحنان رفض الوثنية بأنه جوهر اليهودية. ليس من الوثنية دعم دولة يهودية. كان ليبوفيتش نفسه يؤمن بأنه على الرغم من أن الدولة اليهودية لا تمتلك "قيمة جوهرية"، إلا أنه يمكن تبريرها كوسيلة لحماية الذات اليهودية إذا أنهت احتلالها للفلسطينيين عديمي الجنسية في الضفة الغربية وقطاع غزة. توفي عام 1994، لذا لا سبيل لمعرفة ما إذا كان سيظل متمسكًا بهذا الرأي الآن. لكنه اعتبر عبادة الدولة اليهودية، ورفع قيمتها فوق قيمة البشر الخاضعين لسيطرتها، من الوثنية. وهذه الوثنية تغلغل في الحياة اليهودية المعاصرة.

لإدراك مدى انتشارها، انظر إلى معاملة أولئك الذين لا ينحنون. في معظم أنحاء العالم اليهودي اليوم، يُعد رفض الدولة اليهودية بدعة أكبر من رفض اليهودية نفسها. في إسرائيل، لا يوجد شرط ديني للانتخاب للكنيست. من بين أربعة عشر رئيس وزراء في تاريخ إسرائيل،

لم يلتزم سوى نفتالي بينيت بالشريعة اليهودية. لكن هناك شرطًا صهيونيًا: لا يمكن للأحزاب السياسية معارضة "وجود دولة إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية."

كما تعتبر العديد من المؤسسات اليهودية الأمريكية رفض الدولة اليهودية أكبر انتهاك ممكن للمقدسات. تُعلن منظمة "هيليل[12]"، التي تخدم طلاب الجامعات اليهود، على موقعها الإلكتروني أن "جميع أنواع الطلاب مدعوون ومشجعون على إحضار ما لم يحضروه قط. سواء كان الطلاب يلتزمون بالشريعة اليهودية أو لديهم كنيس؛ وسواء كانوا يرغبون في المشاركة في السبت أو في مجموعة دراسية؟" الكنيس والسبت اختياريان. ومع ذلك، تُشكل إسرائيل "عنصرًا أساسيًا في الحياة اليهودية". وهنا ينتهي التسامح.

يُحظر صراحةً على المتحدثين الذين "ينتقصون" من شرعية الدولة اليهودية التحدث في هليل. لا يوجد حظر على المتحدثين الذين "ينتقصون" من شرعية الله.

إن معاملة الدولة كإله أمرٌ مُخيفٌ للغاية. فهو يُضفي على البشر مستوىً من التبجيل لا نستحقه وسنُسيء استخدامه دائمًا. وصف ليبوفيتز هذا بأنه "جوهر الفاشية". إنه أمرٌ مُخيفٌ بشكل خاص عندما تعمل تلك الدولة وفق أسس قبلية صريحة. في خطابٍ ألقاه عام 1963 حول "الدين والعرق"، عرّف أبراهام جوشوا هيشل الصنم بأنه "أي إله لي وليس لك، أي إله يهتم بي وليس بك". كان ينتقد الأمريكيين الذين يُؤلهون التفوق الأبيض. لكن ربما كان يتحدث عن اليهود الذين يُؤلهون التفوق اليهودي. إن عبادة بلد يُعلي شأن اليهود على حساب الفلسطينيين تُستبدل إله اليهودية العالمي - الذي يُلزم اليهود بمطالب خاصة ولكنه يُقدّر جميع الناس - بإله قبلي يعتبر حياة اليهود ثمينة وحياة الفلسطينيين زهيدة.

وأضاف هيشل: "التصرف بروح الدين هو توحيد ما هو مُفرّق، وتذكير بأن البشرية جمعاء هي ابن الله الحبيب. التصرف بروح العرق - أو التفوق القبلي من أي نوع - هو تمزيق، وتقطيع، وتقطيع لحم البشرية الحية". لم يكن هيشل يتحدث مجازيًا. فحتى 22 سبتمبر 2024، ووفقًا لوزارة الصحة في غزة، التي تُشابه أرقام خسائرها الإجمالية تاريخيًا أرقام إسرائيل، خلّفت هذه الحرب حوالي 6% من سكان غزة بين جريح ومقتول. وهذا يُعادل أكثر من 500 ألف إسرائيلي أو 18 مليون أمريكي. لو انتهت الحرب غدًا، وأُعيد بناء غزة بنفس وتيرة الحروب السابقة، لاستغرقت عملية إعادة الإعمار ثمانين عامًا. هذا شركٌ في الواقع. لقد بنينا مذبحًا وألقينا مجتمعًا بأكمله في النار.

القربان، أو القرابين الدينية، لا تقتصر على غزة. فهي تشمل اليهود الإسرائيليين أنفسهم: قد يستغرق الأمر عقودًا لإدراك مدى خطورة هذه الحرب عليهم. زياد النخالة، الذي شهد إسرائيل تقتل والده في سن الثالثة عندما ارتكبت مجزرة بحق الفلسطينيين في خان يونس عام 1956، يرأس حاليًا حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية. لقد قتلت إسرائيل بالفعل أكثر من مئة ضعف عدد الفلسطينيين في غزة في هذه الحرب مقارنةً بما قتلته آنذاك. فكم من طفل في الثالثة من عمره سيظل يسعى للانتقام بعد تسعة وستين عامًا من الآن؟

لكن مولوخ يريد المزيد. للدفاع عن إسرائيل، يُلحق اليهود الأمريكيون الضرر بمجتمعنا وبلدنا. قبل أكثر من نصف قرن، أشار الكاتب آي. إف. ستون إلى أن "إسرائيل تُنشئ نوعًا من الانفصام الأخلاقي لدى يهود العالم". اليهود الذين يعتمد رفاههم في بلداننا "على الحفاظ على مجتمعات علمانية غير عنصرية وتعددية" كانوا يدافعون عن دولة يهودية "يكون فيها المثل الأعلى عنصريًا وإقصائيًا". اليوم، وبينما ينقلب التقدميون على إسرائيل، يُجبرون اليهود الأمريكيين على الاختيار بين الدفاع عن الإقصاء في إسرائيل أو الاندماج في الولايات المتحدة. وتختار بعض المؤسسات اليهودية الأمريكية الرائدة الخيار الأول.

هذا الخيار يجعل الحياة اليهودية الأمريكية أكثر انعزالاً وقمعًا. بعد السابع من أكتوبر، ألغت مكتبة شارع 92، التي كانت لعقود رمزًا للتعددية اليهودية في نيويورك باستضافة كتّاب مثل جيمس بالدوين وسوزان سونتاغ وتشيسلاف ميلوش، سلسلتها الأدبية السنوية بدلًا من استضافة كتّاب يقاطعون إسرائيل.

في الوقت نفسه تقريبًا، حظرت جامعة برانديز، التي سُميت تيمنًا بأشهر مدافع يهودي أمريكي عن حرية التعبير، فرعها التابع لمنظمة "طلاب من أجل العدالة في فلسطين"، وبدأت تُسوّق لنفسها على أنها حرم جامعي يُمكن للطلاب فيه "الشعور بالأمان في هويتهم اليهودية" لأنهم لن يواجهوا انتقادات لاذعة لإسرائيل. هذا يُشبه عزل أنفسهم. لتجنب أي نقاش مفتوح حول إسرائيل، تتخلى بعض المؤسسات اليهودية الأمريكية الأكثر احترامًا عن الانفتاح الفكري الذي كنا نفخر به سابقًا.

إن الدفاع عن إسرائيل مهما كلف الأمر لا يُهدد الثقافة اليهودية الأمريكية فحسب، بل يُهدد أيضًا الحرية الأمريكية. أيدت المنظمة الصهيونية الأمريكية ذات الميول اليمينية تشريعًا يُمكن أن يُوقف تمويل الجامعات الأمريكية - وهي حجر الزاوية في المجتمع الحر - إذا سمحت بإقامة فعاليات معادية للصهيونية في الحرم الجامعي. في مارس 2024، وبينما كان دونالد ترامب يُؤمّن ترشيح الحزب الجمهوري للرئاسة، كرّمت المنظمة صهره جاريد كوشنر وبررت قرارها بالإشارة إلى عمل كوشنر الداعم لإسرائيل. في العام نفسه، أيدت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (AIPAC) أكثر من مئة مرشح جمهوري للكونغرس، والذين حاولوا، بناءً على طلب ترامب، قلب نتائج انتخابات 2020.

كما أشار ستون، لطالما اعتبر اليهود في الولايات المتحدة وأوروبا المجتمعات المفتوحة أمرًا بالغ الأهمية لسلامتنا. ولكن الآن، وبعد أن أصبحت الأحزاب اليمينية الاستبدادية - من الحزب الجمهوري إلى التجمع الوطني الفرنسي إلى التحالف من أجل ألمانيا - أكثر تأييدًا لإسرائيل من منافسيها ذوي الميول اليسارية، يراهن بعض القادة اليهود على رهان مختلف: أننا نستطيع الازدهار في دول عرقية مسيحية بيضاء. هذا هو ما يقودنا إليه لاهوتنا في الدولة اليهودية. للدفاع عن التفوق القبلي في إسرائيل، نعمل على تمكين التفوق القبلي في الولايات المتحدة وأوروبا، حيث لسنا حتى القبيلة المهيمنة.

كما نُقدّم تضحية أخيرة: القانون الدولي. لحماية إسرائيل، تعمل الجالية اليهودية المُنظّمة - في إسرائيل وحول العالم - على تشويه سمعة منظمات حقوق الإنسان الرائدة عالميًا والمحاكم الدولية وترهيبها.

في عام 2022، عندما خلصت منظمة العفو الدولية إلى أن إسرائيل تمارس الفصل العنصري، هاجمتها رابطة مكافحة التشهير لمساهمتها في "تكثيف معاداة السامية حول العالم" - على الرغم من أن منظمات حقوق الإنسان الرائدة في إسرائيل نفسها قد وجهت نفس التهمة. وأفادت التقارير أن رئيسًا سابقًا للموساد، جهاز الأمن الخارجي الإسرائيلي، هدّد المدعية العامة للمحكمة الجنائية الدولية آنذاك وعائلتها عندما فكّرت في فتح تحقيق في جرائم الحرب الإسرائيلية.

في عام 2024، بعد أن اقترح مدعٍ عام جديد للمحكمة الجنائية الدولية إجراء مثل هذا التحقيق، أشادت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك) بتصويت مجلس النواب على فرض عقوبات ليس عليه فحسب، بل على ولديه أيضًا.

هذه البلطجة تُضعف النظام القانوني الذي وُلد بعد الحرب العالمية الثانية، وتوسّع بعد الإبادة الجماعية في رواندا ويوغوسلافيا السابقة، لكبح جماح الأفعال الجشعة للدول. إنها هدية لفلاديمير بوتين، وناريندرا مودي، وشي جين بينغ، وأي طاغية آخر يخشى أن تُخزى سمعته من قِبَل جماعات حقوق الإنسان أو تُحاكمه المحكمة الجنائية الدولية.

إذا استطاعت إسرائيل تدمير غزة دون عقاب، تُحذّر أغنيس كالامارد، الأمينة العامة لمنظمة العفو الدولية، من أن ذلك سيترك "القانون الدولي على الأرجح في حالة احتضار، ولن يحل محله سوى المصالح الوطنية الوحشية والجشع المُطلق". في حماسنا لحماية إسرائيل مهما كلف الأمر، هذا هو العالم الذي نساهم في خلقه.

هناك مسار آخر. لكنه يتطلب إدراك ما علّمه ليبويتز: أننا في قدرتنا على تحقيق العدالة والظلم، لا نختلف عن أي شخص آخر.

قد لا يبدو هذا تحولاً مفاهيمياً كبيراً. فمعظم اليهود لا يسيرون في الشارع معتقدين أننا محصنون من الخطيئة. ومع ذلك، يتخلل هذا الافتراض حوارنا الجماعي حول إسرائيل: إنه دائماً خطأ شخص آخر. طردت إسرائيل 750 ألف فلسطيني عام 1948: لأن الحكومات العربية طلبت منهم المغادرة. تحتل إسرائيل ملايين الفلسطينيين في الضفة الغربية الذين يفتقرون إلى الجنسية والحق في التصويت: لأن الفلسطينيين لن يقبلوا عروض السلام الإسرائيلية. تتهم جماعات حقوق الإنسان إسرائيل بممارسة الفصل العنصري: لماذا لا يركزون على سوريا وإيران؟ يطالب الطلاب المتظاهرون إسرائيل بالتوقف عن محو غزة: إنهم معادون للسامية، أو في أحسن الأحوال، جاهلون تماماً. تتغير الأعذار، لكن النتيجة النهائية تبقى كما هي: اليهود ضحايا. لم ترتكب إسرائيل أي خطأ جوهري.

لأجيال، بنى اليهود في إسرائيل والشتات هويتنا حول قصة الضحية الجماعية والعصمة الأخلاقية. بالنسبة للكثيرين منا، فإن التشكيك في الدولة اليهودية يعني التشكيك في يهوديتها. ماذا يعني أن تكون إسرائيليًا في دولة لا تُحابي اليهود، بالنظر إلى أن محاباة اليهود مُتجذرة في اسم "إسرائيل" نفسه، وهو مرادف للشعب اليهودي؟ وماذا يعني استبدال السيادة اليهودية بالمساواة القانونية لليهود الأمريكيين في حين أن معظم المعابد اليهودية الأمريكية تُزين علم إسرائيل على المنبر ودعاءً لإسرائيل في القداس؟ إن إزالة السيادة اليهودية من الهوية اليهودية، وبالنسبة للعديد من اليهود حول العالم، ليس من الواضح ما الذي تبقى.

لكن فائدة الاعتراف بأن اليهود ليسوا مختلفين جوهريًا عن غيرهم هي أنه يسمح لنا بالتعلم من تجربتهم. الاستثنائية اليهودية أقل استثنائية مما نعتقد. لسنا الوحيدين الذين يستخدمون قصة الضحية لتبرير السيادة.

في أوائل القرن العشرين، ملأ الأفريكانيون (الثوار الأفارقة) جنوب أفريقيا بنصب تذكارية تُخلّد ذكرى المعسكرات التي زجّت بهم فيها القوات البريطانية خلال حرب البوير الثانية. قد لا نعرف شيئًا عن هذا التاريخ، ونعتبره تافهًا مقارنةً بآلاف السنين من الاضطهاد، لكنه شكّل رؤية العديد من الأفريكانيين للعالم.

كانوا يعتقدون أنهم مُهدّدون محليًا وعالميًا: في الداخل، من قِبل السود في جنوب أفريقيا، الذين يُفترض أنهم يريدون قتلهم، وفي الخارج، من قِبل بريطانيا وبقية الغرب غير الموثوق والمنافق، الذي كان على استعداد للسماح بحدوث ذلك.

اليوم، قد تبدو هذه الرواية وهميّة وغريبة. لكنني قضيتُ جزءًا من طفولتي في كيب تاون في عصر الفصل العنصري: صدقوني، آمن الأفريكانيون ومعظم البيض في جنوب أفريقيا بها من كل قلوبهم. ولم تكن مختلفة عن القصة التي يرويها اليهود لأنفسهم عن إسرائيل كما قد نرغب في تصديقها. عندما يتخيل اليهود دولةً تمنح الفلسطينيين المساواة بين النهر والبحر، يتخيل الكثيرون همجية الشرق الأوسط المزعومة واختلاله وهو يهبط على تل أبيب البكر. أما البيض في جنوب أفريقيا، الذين كانت لديهم نظرة قاتمة مماثلة لما يحيط بهم، فقد غذّوا مخاوف مماثلة. وناقشوا نيجيريا والكونغو بنفس القدر من الخوف الذي يناقشه اليهود اليوم في سوريا والعراق. وتمتموا بأن العنف متفشٍّ في هذا الجزء من العالم، وأن الأقليات العاجزة لا تنجو.

ووجدوا مثال زيمبابوي المجاورة مُرعبًا بشكل خاص. ففي عام 1987، أشارت حتى هيلين سوزمان، وهي ليبرالية من جنوب أفريقيا، إلى أن الانتقال من الحكم الأبيض هناك "كلف 20 ألف روح". وحذرت من أن "نقل السلطة في جنوب أفريقيا سيتطلب أكثر من ذلك بكثير؟"

في هذه الأيام، عندما يُخبرني الناس أن اليهود والفلسطينيين لا يستطيعون العيش جنبًا إلى جنب على قدم المساواة لأن مثل هذه الأمور غير ممكنة في الشرق الأوسط، تعود بي الذاكرة

إلى أربعة عقود. أتذكر أقاربي وهم يستشهدون بالديكتاتوريات والحروب الأهلية شمال نهر ليمبوبو كدليل على استحالة العيش بين السود والبيض في جنوب إفريقيا ديمقراطية. المجموعة الوحيدة من الجنوب أفريقيين التي لم أسمعها قط تقول هذا هي السود، تمامًا كما نادرًا ما أسمعه من الفلسطينيين اليوم.

كان البيض في جنوب إفريقيا يخشون الرمي في البحر تمامًا مثل اليهود الإسرائيليين الآن. ربما كانوا أكثر خوفًا لأنهم كانوا يشكلون نسبة أقل من السكان وكان لديهم حلفاء أقل في الخارج. اعتبروا المؤتمر الوطني الأفريقي بزعامة نيلسون مانديلا جماعة إرهابية، ولم يكونوا الوحيدين في ذلك. فقد صنفته الحكومة الأمريكية على هذا النحو.

بدا منافس المؤتمر الوطني الأفريقي، المؤتمر الوطني الأفريقي - (PAC) الذي كان شعاره غير الرسمي "مستوطن واحد، رصاصة واحدة" - أكثر تهديدًا. حتى السود الذين لم يستخدموا المقاومة العنيفة بأنفسهم، مثل الأسقف ديزموند توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام عام 1984، ترددوا في إدانتها، تمامًا كما يفعل الكثير من الفلسطينيين اليوم.

في ضوء هذه الحقائق، اعتبر معظم البيض في جنوب أفريقيا أنه من البديهي أنه بدون جيش أبيض يحميهم، ستكون حياتهم في خطر جسيم. أظهر استطلاع للرأي أُجري عام 1979 أن 84٪ من البيض في جنوب أفريقيا يعتقدون أن "السلامة الجسدية للبيض ستتعرض للتهديد من قبل الحكومة السوداء". وأشار الصحفي أليستر سباركس إلى أن البيض في جنوب أفريقيا ساواوا "الاندماج العرقي بالانتحار الوطني"، تمامًا كما ينظر العديد من اليهود الإسرائيليين إلى الاندماج مع الفلسطينيين على أنه انتحار اليوم.

على بُعد أكثر من ثمانية آلاف ميل شمال جوهانسبرغ، روى البروتستانت في أيرلندا الشمالية قصةً مماثلة. وبرروا هيمنتهم بقصصٍ عن كونهم ضحايا أيضًا. ففي شهر يوليو من كل عام، كانوا يلوحون باللافتات ويغنون أغاني عن حصار ديري عام 1689، عندما جاع أسلافهم بدلًا من الخضوع لملك كاثوليكي، وعن الثورة الأيرلندية عام 1641، عندما أغرق الكاثوليك أجدادهم في نهر بان.

وهم أيضًا رأوا أنفسهم مُهددين من جبهتين. واجهوا تهديدًا محليًا: جحافل كاثوليكية سعت إلى فصل أيرلندا الشمالية عن المملكة المتحدة وضمها إلى أيرلندا التي اعتبرها البروتستانت متخلفة واستبدادية تقريبًا كما ينظر البيض في جنوب أفريقيا إلى أفريقيا، وينظر العديد من اليهود اليوم إلى الشرق الأوسط. وواجهوا أيضًا خطر التخلي عنهم من لندن، وهو ما كرر المخاوف التي كانت لدى البيض في جنوب أفريقيا سابقًا، ويشعر بها اليهود اليوم، من خيانة الغرب المُخادع والطائش.

كان بروتستانت أيرلندا الشمالية يخشون المساواة. وقد سيطر عليهم هاجس عنف الجيش الجمهوري الأيرلندي الكاثوليكي، الذي لم يعتبروه ردًا على القمع، بل، على حد تعبير أحد

علماء السياسة الأيرلنديين، "بربرية قبلية صريحة". ارتجف البروتستانت عندما فكروا فيما قد يفعله هؤلاء القتلة إذا ما تسلموا ترسانة أسلحة الدولة. سيكون ذلك بمثابة حصار ديري من جديد. عندما ضغطت الحكومات البريطانية والأيرلندية والأمريكية على البروتستانت للتخلي عن هيمنتهم السياسية في اتفاقية الجمعة العظيمة عام 1998، وصفها زعيمهم الأشهر، إيان بيزلي، بأنها "مقدمة لإبادة جماعية."

هكذا كان كثير من البيض الجنوبيين في الولايات المتحدة يتحدثون أيضًا. إذا كان الأفريكانيون قد خاضوا حرب البوير، والبروتستانت في أيرلندا الشمالية قد خاضوا حصار ديري، فإن قصة ضحية الجنوب كانت إعادة الإعمار.

وفقًا للأسطورة، نُهِب الجنوب بعد الحرب الأهلية على يد عدو محلي، السود العنيفين، وعدو بعيد، الحكومة الفيدرالية في واشنطن.

أثناء إعادة الإعمار، أعلن حاكم ألاباما، جورج والاس، عام 1963، أن "الجنوب قد هُجِّم". وقد نطق بهذه الكلمات في خطاب حذّر فيه من أن الجنوبيين البيض واجهوا في العصر المدني الاضطهاد من نفس تلك القوى الخبيثة مرة أخرى: السود الذين أرادوا الاستيلاء على السلطة والليبراليين الشماليين الذين كانوا يساعدونهم. قارن والاس معاملة الحكومة الفيدرالية للبيض في ميسيسيبي بمعاملة النازيين لليهود. كان التشبيه مبالغًا فيه، لكن المخاوف الكامنة وراءه كانت شائعة. في منتصف القرن العشرين، اعتبر معظم البيض الجنوبيين المساواة العرقية وهمًا فظيعًا. وكما أشار المؤرخ جيسون سوكول: "كانوا يفكرون من منظور تفوق البيض أو تفوق السود: إذا حصل السود على حقوق، فسيخضع البيض للنير."

لماذا كان هؤلاء العنصريون الخائفون مخطئين؟ لماذا لم يقتحم رفاق المؤتمر الوطني الأفريقي ومؤتمر العمل السياسي أحياءً مثل حي جدتي، مرددين شعار "مستوطن واحد، رصاصة واحدة" ويذبحون البيض، بعد سقوط نظام الفصل العنصري؟ لماذا لم يحاصر الجيش الجمهوري الأيرلندي الأحياء البروتستانتية في ديري؟ في جوهرها، الجواب بسيط للغاية: لأن معظم الناس - سود، بيض، كاثوليك، مسلمون، فلسطينيون، أيًا كان - لا يحملون السلاح بسهولة.

لا يريدون أن يقتلوا أو يُقتلوا. يفعلون ذلك عندما يشعرون أنه لا خيار آخر أمامهم. عندما يكتسب المضطهدون صوتًا في الحكومة، فإنهم يكتسبون طريقة أخرى للتحدث إلى أصحاب السلطة، طريقة لا تُعرّض حياتهم للخطر. هذا لا يُنهي العنف السياسي، ولكنه يميل إلى الانحسار. لهذا السبب لم تشهد جنوب أفريقيا حرب عصابات دامية استمرت خمسة عشر عامًا مثل زيمبابوي: لأن قادتها أدركوا بسرعة أن السبيل الوحيد لوقف انتفاضة السود هو منحهم حق التصويت.

لهذا السبب لا تجري أنهار من الدماء في شوارع ألاباما. تخيّلوا كم كان العنف العنصري سيزداد في ولاية والاس اليوم لو لم يحصل السود الجنوبيون على حق الانتخاب عام 1965.

أو تخيّلوا مصير ممارسة جنوب أفريقية تُسمى "القلادة". كانت أسلوب المؤتمر الوطني الأفريقي لمعاقبة المتعاونين مع نظام الفصل العنصري. كان الرفاق يعلقون إطارًا حول عنق المسكين، ويسكبون عليه البنزين، ثم يشعلون النار فيه. في عام 1985، أعلنت زوجة نيلسون مانديلا، ويني، إحدى أقوى الشخصيات السوداء في جنوب أفريقيا: "بعلب أعواد الثقاب وقلائدنا، سنحرر هذا البلد."

لم يُدن المؤتمر الوطني الأفريقي هذه الممارسة. ارتجف البيض في جنوب أفريقيا وهم يتخيلون تسليم البلاد لمثل هؤلاء. لكن "بمجرد ظهور طريقة سلمية لإنهاء الفصل العنصري كبديل"، كما يشير الباحث السياسي محمود ممداني، "لم يعد من الممكن العثور على أي شخص يؤيد فرض "الطوق" في اليوم التالي". كان "الطوق" ردًا وحشي على نظام وحشي. وبمجرد أن اختفى هذا النظام، اختفى هو الآخر.

وقد تأكدت ملاحظة ممداني بأن الشمول يُحقق الأمان من خلال مجموعة صغيرة من الأبحاث الأكاديمية. فقد وجدت دراسة أجريت عام 2010 على 146 حالة صراع عرقي حول العالم منذ الحرب العالمية الثانية أن الجماعات العرقية التي استُبعدت من سلطة الدولة كانت أكثر عرضة لحمل السلاح بثلاث مرات من تلك التي تمتعت بتمثيل في الحكومة.

في كتابها الصادر عام 2023، "المساواة الجماعية"، تشير الباحثة الإسرائيلية ليمور يهودا إلى أن الدول التي تمارس "الإقصاء السياسي والتمييز الهيكلي" أكثر عرضة بكثير لتجربة "حروب أهلية".

يمكنك أن ترى هذه الديناميكية حتى في إسرائيل نفسها. كل يوم، يضع اليهود الإسرائيليون، الذين يخشون بشدة الفلسطينيين في غزة والضفة الغربية، أنفسهم في أيدي الفلسطينيين عندما يكونون في أضعف حالاتهم: على طاولة العمليات. يشكل المواطنون الفلسطينيون - الذين يُطلق عليهم أحيانًا "عرب إسرائيل" - 25% من أطباء إسرائيل، و30% من ممرضيها، و60% من صيادلتها. ومع ذلك، قليل من اليهود الإسرائيليين يخشون التعرض للضرب بالهراوات عند دخولهم المستشفى أو التسمم عند دخولهم الصيدلية. في الواقع، لا يخشون عنف المواطنين الفلسطينيين على الإطلاق. بل إنهم لا يخشون عنف المواطنين الفلسطينيين الأصوليين الإسلاميين. في عام 2021، انضم حزب إسلامي، القائمة العربية الموحدة، إلى الحكومة الائتلافية الإسرائيلية.

لماذا يعتبر اليهود الإسرائيليون المواطنين الفلسطينيين أقل تهديدًا؟ ليس لأن المواطنين الفلسطينيين لا يكترثون لكونهم فلسطينيين. ليس لأنهم لا يتذكرون ما فعلته إسرائيل بعائلاتهم عام 1948. ليس لأنهم يحبون الصهيونية. أكثر من أي شيء آخر، لأنه لديهم الجنسية.

يمكنهم التصويت. لذا، على الرغم من أنهم يواجهون تمييزًا شديدًا، إلا أن لديهم على الأقل بعض الأساليب السلمية والقانونية لإسماع أصواتهم. قارن ذلك بالفلسطينيين في غزة، الذين ليس لديهم طريقة قانونية للتأثير على الدولة التي تقصفهم وتسجنهم. في عام 2018، عندما ساروا، سلميًا إلى حد كبير، إلى السياج الذي يحيط بغزة، تم إطلاق النار عليهم ببساطة.

لا يُعزز الشمول السياسي السلام داخل الدول فحسب، بل يُعزز السلام بينها أيضًا. في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، خاضت جنوب إفريقيا حربًا ضد خمس دول مجاورة دعمت الكفاح المسلح لحزب المؤتمر الوطني الأفريقي. وعندما انتهى ذلك الكفاح المسلح، انتهت الحروب الإقليمية أيضًا.

اليوم، لا يخشى اليهود الفلسطينيين فحسب؛ بل يخشون "محور المقاومة" بأكمله، الذي يتخذ من إيران مقرًا له ويمتد من لبنان إلى اليمن إلى العراق. لكن هذا المحور هو وسيلة طهران لاستغلال النضال الفلسطيني لتعزيز نفوذها الإقليمي. فإذا انتهى النضال الفلسطيني، انتهى معه المبرر الرئيسي لـ"مقاومة" إيران وحلفائها ضد إسرائيل. وقد أقر قادة إيران بذلك في عام 2017، عندما وقعوا على بيان منظمة التعاون الإسلامي الذي أيد مبادرة السلام العربية، والتي عرضت الاعتراف بإسرائيل إذا ما قبلت دولة فلسطينية ذات سيادة في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية، و"حلًا عادلًا لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين". كانت الرسالة واضحة: عندما يكف الفلسطينيون عن محاربة إسرائيل، سنكفّ نحن أيضًا.

هذا لا يعني أنه بمجرد نيل الفلسطينيين حريتهم، سيعمّ السلام في جميع أنحاء الشرق الأوسط. إنه لا يضمن حتى السلام في إسرائيل وفلسطين. فالأنظمة السياسية التي تمنح الجميع صوتًا في الحكومة قد تكون ظالمة للغاية. لا تزال جنوب إفريقيا تعاني من تفاوتٍ بشع. وكذلك الولايات المتحدة. عمليًا، لا تزال مدارس أيرلندا الشمالية تُفصل على أسس دينية. يمكن للأنظمة السياسية الديمقراطية أن تكون مختلة وظيفيًا وفاسدة للغاية: فقد ورد أن الرئيس الجنوب أفريقي السابق جاكوب زوما حاول تحويل مليارات الدولارات من أصول الحكومة إلى رفاقه. وهذه المشاكل - الظلم، وعدم الكفاءة، وسوء التصرف - يمكن أن تُسقط الديمقراطية. قد يحدث ذلك في جنوب إفريقيا. وقد يحدث ذلك في الولايات المتحدة. بعد انتهاء نظام قمعي، يمكن أن ينشأ نظام آخر. الصراع لا ينتهي.

ستواجه فلسطين-إسرائيل المستقبلية كل هذه التحديات. كما ستواجه تحديًا لا تواجهه الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا: فهي تفتقر إلى هوية وطنية شاملة. يعتبر كل من الأمريكيين البيض والسود أنفسهم أمريكيين؛ ويعتبر كل من البيض والسود في جنوب إفريقيا أنفسهم جنوب إفريقيين. ولهذا السبب لم يتغير اسم أي من البلدين عندما حصل السود على حق التصويت. أما إسرائيل-فلسطين، فهي مختلفة.

يريد الفلسطينيون واليهود الإسرائيليون تقرير المصير، ومع ذلك، فمن شبه المؤكد أنهما متداخلان لدرجة يصعب معها فصلهما بحدود جامدة. هناك مقترحات لمواجهة هذا التحدي: كونفدرالية بين دولة فلسطينية ودولة يهودية، أو اتحاد داخل دولة ثنائية القومية، أو نظام

ديمقراطي - مثل النظام القائم في بلجيكا ثنائية القومية - يضمن لكلا المجتمعين صوتًا في القرارات الرئيسية. التفاصيل مهمة، لكنها أقل أهمية من المبادئ الأساسية. أينما عاشوا معًا، يجب أن يعيش اليهود والفلسطينيون في ظل قانون واحد. وعليهم العمل على إصلاح مظالم الماضي. يجب السماح للإسرائيليين الذين أصبحوا لاجئين في 7 أكتوبر بالعودة إلى ديارهم. ويجب السماح للفلسطينيين الذين هُجّروا عام 1948 بالعودة إلى ديارهم. لا يمكن أبدًا إصلاح الأخطاء التاريخية بالكامل. ولكن كلما كان الجهد صادقًا، زادت المصالحة التي تنجم عنه.

لا تُطبّق أي دولة هذه المبادئ تطبيقًا كاملًا. ولكن حتى عند تطبيقها بشكل غير كامل، يُمكنها أن تُحدث المعجزات. أهم ما يُمكننا تعلمه من البيض في جنوب أفريقيا، والجنوبيين البيض، والبروتستانت في أيرلندا الشمالية ليس أن التخلي عن السيادة يجلب الأمان، بل أن التخلي عن السيادة يُتيح فرصة للتحرر. يكتب سوكول: "شعر العديد من البيض الجنوبيين أن سنوات الحقوق المدنية قد أزالت عبئًا كبيرًا عن كاهلهم. بدا وكأن ثقل الماضي الطويل والدموي قد زال."

في عام 2012، أطلقت امرأة تُدعى ليندا إرفين مبادرة غير متوقعة في شرق بلفاست، وهي منطقة من المدينة طهرها البروتستانت بعنف من الكاثوليك قبل قرن. بدأت بتدريس اللغة الأيرلندية الأصلية التي طالما خشي البروتستانت أن تُفرض عليهم إذا تولى الكاثوليك زمام الأمور.

في مقابلة أُجريت معها بعد عشر سنوات، قالت إنها لم تستطع تلبية هذا الطلب. في عام 1996، وفي خطابٍ ألقاه في كيب تاون بمناسبة إقرار دستور جنوب أفريقيا الجديد، تحدث نائب رئيس البلاد، ثابو مبيكي، عن تراث أمته. ووصف نفسه بأنه سليل ملوك وزعماء قبائل الزوسا، والبابيدي، والزولو، والفيندا، والسوتو، والنغوني الذين حاربوا المستعمرين البريطانيين، والأفريكانيين، وغيرهم من الأوروبيين. ولا عجب في ذلك: فمبيكي كان من الزوسا، وسليل عائلة بارزة في المؤتمر الوطني الأفريقي. ثم قال شيئًا مذهلًا: "أنا الحفيد الذي يضع الزهور الطازجة على قبور البوير" ويتذكر "معسكرات الاعتقال، والمنازل المدمرة، وحلمًا في حالة خراب". كان يتحدث عن حرب البوير الثانية. وكان يصف نفسه بأنه أفريكاني. تابع مبيكي قائلاً: "لأنني جزء من كل هؤلاء الناس، فأنا أفريقي."

على بُعد ثلاثين ميلاً شرقاً، في جامعة ستيلينبوش، جامعة أكسفورد الأفريكانية، توصّل محاضر شاب يُدعى فيلهلم فيرورد إلى نفس النتيجة. قال لصحفي بريطاني جاء ليسأله عن سبب انضمامه إلى المؤتمر الوطني الأفريقي: "علينا أن نأخذ الجانب الأفريقي في الهوية الأفريكانية على محمل الجد". لماذا كان مراسل أجنبي يستكشف آراء أكاديمي مغمور؟ بسبب اسم عائلة فيلهلم. يُعتبر جده، رئيس الوزراء هندريك فيرورد، على نطاق واسع مهندس نظام الفصل العنصري.

مع أن الأمر لن يبدو كما كان، إلا أن هذا النوع من التحرير ممكن لنا. يمكننا أن نخفف العبء الذي يفرضه قمع الفلسطينيين على اليهود الإسرائيليين، وبشكل غير مباشر على

اليهود حول العالم. لسنا بحاجة إلى تشويه أرواح الشباب اليهود الإسرائيليين بإرسالهم لإذلال الرجال أمام أطفالهم وتقييد النساء الصارخات بينما تهدم الجرافات منازلهن. لسنا بحاجة إلى مشاهدتهم يطيرون بعد خدمتهم العسكرية لإقامات طويلة في ماتشو بيتشو أو كاتماندو، حيث يحاولون نسيان ما رأوه وفعلوه.

لا يحتاج اليهود الأمريكيون إلى البحث عن معاداة السامية الخفية في كل طالب أنثروبولوجيا في التاسعة عشرة من عمره، أو جدة لوثرية، تدين إسرائيل لأنها لا تطيق رؤية طفل فلسطيني آخر يموت.

لسنا بحاجة إلى طرد أشخاص محترمين - نفس الأشخاص الذين احتجوا على فيتنام في الستينيات، وفي الثمانينيات على نظام الفصل العنصري في جنوب إفريقيا، وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين على حرب العراق - لمجرد أن انتهاكات حقوق الإنسان التي يتحدونها هذه المرة، والممولة من الولايات المتحدة، ترتكبها دولة يهودية. لسنا مضطرين للتحالف مع بلطجية "جعل أمريكا عظيمة مجددًا" لأن العنصريين هم أصدق أصدقاء إسرائيل. لسنا مضطرين لتشويه مؤسساتنا المجتمعية بقمع النقاش المفتوح. لسنا مضطرين لعزل جزء من أنفسنا وحجبه عن أفضل صفاتنا - اللطف والرحمة والإنصاف - لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها الدفاع عما يُرتكب باسمنا. يمكننا أن نتخلى عن عبء رؤية أنفسنا كضحايا دائمين لعالم يكره اليهود.

أعتقد أن هذا ممكن لأن تقاليدنا تقول ذلك. إنها لا تتحدث فقط عن تحرير الله لنا من العبودية.

يتحدث عن تحرير الله لنا من كوننا أسيادًا. في وصفه لسنة اليوبيل، المناسبة التي تُحتفل فيها الذكرى نصف المئوية لتحرير العبيد، يعلن سفر اللاويين: "أعلنوا التحرير في جميع أنحاء الأرض لجميع سكانها". ويشير تعليق يُنسب (ربما خطأً) إلى الحاخام الألماني يعقوب يهوشوا فالك في القرن الثامن عشر إلى أن الكلمات الثلاث الأخيرة مُبالغ فيها بشكل غريب.

بما أن العبيد فقط هم من يُحررون، فلماذا لا تقول الآية: "أعلنوا التحرير في جميع أنحاء الأرض لجميع عبيدها؟" يجد التعليق الإجابة في التلمود، الذي ينص على أن "من اقتنى عبدًا عبرانيًا فهو كمن اقتنى سيدًا". إن امتلاك العبودية يجعلك نوعًا من العبد. ولهذا السبب تجلب سنة اليوبيل الحرية "لجميع سكان" الأرض. وبتحرير المظلومين، تُحرر الظالمين أيضًا.

لقد ذاقتُ بنفسي طعم هذا التحرير ولو قليلاً. نشأتُ مؤمنًا إيمانًا راسخًا بضرورة وجود دولة يهودية. أتذكر جلوسي في غرفة نومي ذات ليلة في الكلية، وسماع الناس في البهو الخارجي يدينون إسرائيل، وهرعتُ للخارج لتصحيح أخطائهم. كنتُ فخورًا بالدفاع عن شرف شعبي. على الرغم من زيارتي لإسرائيل وفلسطين منذ الطفولة، إلا أنني لم أقضِ أي وقت ذي

معنى مع الفلسطينيين هناك حتى العقد الرابع من عمري. كنتُ قد بلغتُ سن الرشد قبل أن أقرأ كتابًا لمؤلف فلسطيني أو يكون لديّ أي شيء يشبه صديقًا فلسطينيًا.

عندما بدأت تلك التجارب ثم أصبحت روتينية، فوجئت في البداية برقيّ وغرابة ولطف وطبيعية الأشخاص الذين قابلتهم. ثم شعرت بالخجل من دهشتي. من خلال لقائي بالفلسطينيين، أدركتُ عمق نزع الإنسانية الذي كنتُ أحمله في داخلي.

وتدريجيًا - مع انحسار الشعور بالدفاعية والارتباك - شعرتُ بأنني أُعاد تشكيل نفسي. محادثةً تلو الأخرى، ساعدني الفلسطينيون على التفكير بشكل مختلف حول معنى الدفاع عن شعبي. ساعدوني على إعادة تعريف الشرف اليهودي. غيّروا فهمي لمعنى أن تكون يهوديًا.

أتذكر أنني تحدثتُ إلى فلسطيني من الضفة الغربية زار مؤخرًا ضاحية يهودية في أتلانتا. رأى يهودًا أرثوذكس يسيرون في مجموعات في الشارع، ولاحظ أن لا أحد منهم مسلح. قال لي: "كما تعلم، هذا ممكن هنا أيضًا. إذا لم نكن خائفين، فلا داعي لأن يكونوا خائفين أيضًا."

أتذكر أنني كنت أسير مع ابني، الذي كان آنذاك في الثانية عشرة من عمره، في السوق القديم في الخليل، وهو شارع كان مزدهرًا في يوم من الأيام، ثم أصبح قاحلًا بسبب القيود الإسرائيلية على حركة الفلسطينيين. رفعتُ رأسي فرأيت الشباك التي بناها أصحاب المتاجر لحمايتهم من قذائف المستوطنين. كان الصديق الفلسطيني الذي سرنا معه قد اعتُقل وضُرب مرات لا تُحصى. لقد عاش في ظل إهانات كانت ستدفعني إلى الكراهية أو اليأس، أو كليهما.

فجأة اختفى. بدأ خوفي يتزايد. لم يكن هناك سوى الفلسطينيين حولي. تذكرت ما قاله لي أحد معارفي الإسرائيليين عندما قلتُ إننا سنسافر للقاء فلسطيني في الخليل: إنه ليس من حقي تعريض طفلي للخطر.

ثم عاد صديقي. دخل متجرًا وخرج بهدية بار ميتزفه لابني. أدركتُ الآن أن هديته الحقيقية لم تكن الرمان الخزفي الذي اشتراه، بل كانت مساعدة شاب يهودي على النمو دون عنصرية أو خوف. في حديثه عن العلاقة بين الأمريكيين السود والبيض، كتب جيمس بالدوين: "سنُجبر، بكل حب، إخواننا على رؤية أنفسهم كما هم. هذا ما فعله الفلسطينيون لي ولعائلتي.

قد يبدو هذا مُبالغًا فيه، لكنني لا أعتقد أن تحولنا كيهود ضروري لإسرائيل وفلسطين فقط، بل للعالم أجمع. شهدت البشرية، على مدى جيلين تقريبًا، ميلادًا جديدًا للحرية. خرج مانديلا من السجن، وأجرت روسيا أول انتخابات حرة لها، ورقص الشباب الألمان فوق جدار برلين.

اجتاحَت الموجة الثالثة من الديمقراطية الطغاة من الفلبين إلى تشـيلي إلى بنين. لقد ماتت روح تلك الحقبة منذ زمن طويل. والحرية تتراجع منذ عقود. من بوتين إلى مودي إلى شـي إلى ترامب، يُهيمن البلطجية على العالم، ويُحرّضـون على العنف القبلي بينما يسـرقون شعوبهم. في وحشيته الجامحة وألمه الذي لا يُطاق، يُصبح تدمير غزة رمزًا لعصرنا.

عندما... عندما اتهم فريقٌ - أسـود، أبيض، أفريكاني، مسـلم، أحدهم تحت حماية قاضٍ يهودي في المحكمة العليا في بلدها - إسـرائيل في محكمة العدل الدولية، بدا لي أنهم لم يكونوا يحاولون إنهاء إبادة جماعية فحسـب، بل كانوا يحاولون تمرير شـعلة. تخيّل فريقًا قانونيًا ليس بأسماء زوسا مثل نغوكايتوبي، وأسماء أفريكانية مثل دو بليسيس، بل بأسماء مثل خالدي وليفي، يتخذون من تحرير فلسـطين وإسـرائيل مثالًا، وأداةً لتحقيق العدالة في جميع أنحاء العالم. أي مكان آخر على وجه الأرض يمكنه أن يُنهض البشـرية من دمارها ويُنشئ عصرًا جديدًا من الحرية بفعالية أكبر؟

يقول الله في سفر التكوين، متحدثًا عن نسل إبراهيم: "تتبارك بك جميع قبائل الأرض". ربما هذا ما يعنيه للشـعب اليهودي أن يُبارك البشـرية في عصـرنا. إنه يعني تحرير أنفسـنا من الهيمنة، حتى نتمكن، كشركاء مع الفلسطينيين، من المساعدة في تحرير العالم.

---

[i]- https://www.penguinrandomhouse.com/books/775348/being-jewish-after-the-destruction-of-gaza-by-peter-beinart/

[ii]- https://truestudies.org/1903/

[iii]- https://themarkaz.org/being-jewish-after-the-destruction-of-gaza-a-review/

[iv]- https://en.wikipedia.org/wiki/Peter_Beinart

1- وُلد راشي في تروا، فرنسا، سنة 1040 وكشاب، أمَّ المعاهد الدينية اليهودية في وورمز وماينتس في راينلَنْد، وهناك درس تحت اشراف بعض العلماء اليهود الأبرز في اوروبا. وبعمر 25 سنة تقريبا، استوجبت ظروفه الشخصية العودة الى تروا. وإذ بات معترَفا به كعالِم بارز، سرعان ما أصبح راشي القائد الديني لدى المجتمع اليهودي المحلي، وأسس معهده الديني الخاص. ومع الوقت، أصبح هذا المركز الجديد للتعليم اليهودي أهم من مراكز أساتذة راشي في المانيا.
كان هدف راشي طوال حياته أن يجعل نص الأسفار العبرانية مفهوما لدى جميع اليهود. ولتحقيق ذلك، بدأ يجمع ملاحظات عن تعليقات حول كلمات وآيات محددة شعر بأنها ستشكل صعوبة عند القارئ. وتذكر ملاحظات راشي تفسيرات أساتذته وتستخدم معرفته الشاملة بجميع المطبوعات الربَّانية. ففي البحث اللغوي، استنفد راشي جميع المصادر المتوفِّرة، واهتم بكيفية تأثير علامات التشكيل والنبر عند الماسوريين في فهم النص. فلشرح معنى كلمة ما، يشير تعليقه على الپانتاتيُك، في الغالب، إلى الترجمة الآرامية (ترجوم أونكلوس). وقد أعرب راشي عن المرونة والبراعة فيما كان يتفحَّص الاحتمالات غير المكتشفة سابقا في شرح حروف الجر وحروف العطف ومعاني الأفعال والنواحي الأخرى لقواعد اللغة وتركيب الجمل. فكانت هذه التعليقات قيّمة جدا لفهم تركيب الجمل والقواعد في اللغة العبرانية.
وبالتباين مع النزعة السائدة في اليهودية الربَّانية، سعى راشي دائما إلى إبراز المعنى الحرفي البسيط للنص. لكنّ مطبوعات المِدرَش الكثيرة المعروفة جيدا عند اليهود لا يمكن تجاهلها. والميزة اللافتة في تعليق راشي هي الطريقة التي يرتبط بها بكتابات المِدرَش نفسها التي غالبا ما طمست المعنى الحرفي لنص الكتاب المقدس.

[6]- حركة حباد هي حركة حسيدية في اليهودية الأرثوذكسية وهي واحدة من أكبر الحركات الحسيدية المعروفة في العالم، المقر الرسمي لها في بروكلين بنيويورك ، وهي أكبر منظمة يهودية في العالم، وقد أسسها الحاخام شنيور ملادي عام 1788 ، وقد نشأت الحركة في بيلاروسيا، ثم انتقلت إلى لاتفيا، ثم بولندا، ثم الولايات المتحدة الأميركية، عام 1940.
بعد أحداث السابع من أكتوبر من العام الماضي، ظهر شعار منظمة حاباد على راية صفراء اعتلت قمة الدبابات الإسرائيلية المشاركة في الحرب على قطاع غزة، ويتمثل الشعار بتاج أزرق وتحته عبارة "مشيح" بالعبرية، أي المسيح المخلص وفقاً للاعتقاد اليهودي.
وعن علاقتها مع الفلسطينيين، لا تؤمن المنظمة بوجود الفلسطينيين وتدعو إلى طردهم وتعارض عقد أي اتفاق معهم. بل ودعت إلى إعادة استطيان غزة بعد السابع من أكتوبر. كما تدعو إلى التخلص من الفلسطينيين في الضفة الغربية والاستيلاء على أراضيهم"، حاباد هي حركة متشددة ومتزمتة تهدف إلى تعزيز الهوية اليهودية وتقريب اليهود من عقيدتهم.
[7]- عيد البوريم المحتفل به في الرابع عشر من شهر آذار، وذلك ما عدا القدس حيث يحتفل بالعيد في الخامس عشر من الشهر. من حين إلى آخر، عندما يصادف الخامس عشر من الشهر يوم السبت، يحتفل سكان القدس بعيد البوريم خلال ثلاثة أيام في الـ-14، والـ-15 والـ-16 من الشهر!
ويشكل ذلك مميزًا واحدًا من مميزات غريبة كثيرة لهذا العيد العجيب. مميز آخر هي الوصية الدينية في الإفراط في شرب الخمر لدرجة عدم القدرة على التمييز بين "موردخاي المبارك" و"هامان اللعين". وقبل العيد تقريبًا بأسبوع قد نرى الصغار (وأحيانا حتى الكبار!) يرتدون الأزياء التنكرية، ذلك لأن في هذا اليوم يجوز للناس، بل يفرض عليهم الاستهزاء بالأشياء الأكثر قدسية بالنسبة لنا.
في الظاهر، يحيي عيد المساخر ذكرى سلسلة الأحداث الغريبة نسبيًا التي تم وصفها في سفر إستير. في فارس القديمة، أقنع زعيم مهووس بالعظمة (هامان) ملكًا غبيًا (أحشويروش) بأن يسمح بذبح جميع اليهود. ولكنّ تدخل مستشار الملك، موردخاي، وبنت أخيه الجميلة، إستير، التي تم انتخابها ملكة في مسابقة جمال، أدى إلى تغيير هذا الحكم القاسي، أو بالأحرى منحت الطائفة اليهودية الحق بالدفاع عن نفسها. فالقصة تستمر من خلال مؤامرات داخل القصر وسلسلة من الولائم والحفلات، حتى أنه في نهاية القصة، يعلن موردخاي وإستير عن القيام بعيد للشعب اليهودي احتفالاً بخلاصهم من الإبادة، وذلك عن طريق منح الهدايا للفقراء ورزم من المأكولات الحلوة الشهية لأصدقائهم. ويكون سفر إستير هو الوحيد في العهد القديم الذي لم يذكر فيه اسم الله ولو مرة واحدة. (أما في كثير من الطبعات المسيحية للعهد القديم هناك أصحاحات إضافية لسفر إستير تمت كتابتها باللغة اليونانية أصلاً وفيها يذكر اسم الله، ولكن كما ذكرنا فإن تلك الأسفار ناقصة في النسخة العبرية).
[8]- عيد الأسابيع هو واحد من الأعياد الرئيسية الثلاثة التي يحتفل بها في التقليد اليهودي. إنه يوم عطلة يقوم فيه اليهود بجلب ثمارهم الأولى إلى معبد القدس وإلى أماكن بعيدة أخرى.يحدث هذا المهرجان بعد خمسين يومًا بالضبط بعد عيد الفصح. هو معروف أيضا باسم عيد الأسابيع. أعطى اليونانيون الذين تحدثوا العبرية اسم "العنصرة" لأنه يقام بعد خمسين يومًا من عيد الفصح. عيد الشافوت، أو كما يطلق عليه في الكتاب المقدس عيد الحصاد، يوم الباكورة، هو العيد الثاني من الأعياد الثلاثة (إلى جانب عيد الفصح وعيد العرش)، وفي العصور القديمة كان يرمز إلى ذروة الدورة الزراعية، حصاد القمح. على عكس عيد الفصح وعيد العرش، لا يوجد لعيد الشافوت تاريخ محدد في التوراة. يتم الاحتفال به في نهاية العد الخمسين للسبعة أسابيع، والذي يبدأ في اليوم التالي لعيد الفصح، ومن هنا جاء اسمه.
[9]- هو عيد يهودي للمكابيون. يسمى عيد التكريس أو مهرجان الأنوار "حانوكا" كما هو مكتوب. في العبرية، تعني كلمة "حانوكا" (Chanukah) "التفاني." بدأت قصة "حانوكا" (Chanukah) في 167 قبل الميلاد عندما كان حكم القدس من طرف الإمبراطورية اليونانية. أجبر اليهود على مغادرة أراضيهم وتغيير دينهم وعبادة الآلهة اليونانية من قبل الملك "أنطيوخس" (Antiochus) الرابع. نتج عن ذلك تمرد من قبل اليهود وتم تعيين "يهوذا ماكابوس" (Judas Macabeus) كقائد لهم. لذا فإن هذا العيد يكرّم ذكرى ترميم المعبد في القدس بينما هم يحاربون ضد اليونانيين لثلاث سنوات كاملة.
[10]- اليهود المزراحيون أو مزراحيم מזרחים مصطلح عبري لليهود الشرقيين وتعني باللغة العبرية مشرقي وتطلق هذه الكلمة على اليهود القادمين أو المتحدرين من سلالة يهود الشرق الأوسط وبعض البلدان الإسلامية. يتضمن هذا المصطلح أيضا يهود إيران، يهود الجبال (القفقاس)، يهود الهند، يهود كردستان، يهود جورجيا،، يهود بخارى (أسيا الوسطى) إضافة إلى يهود اليمن ويهود العراق ويهود إثيوبيا ويهود السودان ويهود سوريا ويهود الجزيرة العربية.و تقابل هذه الكلمة مصطلح اليهود الاشكناز لليهود الأوربيين. من الناحية الدينية يتابع اليهود المزراحيون، باستثناء يهود اليمن، المذهب اليهودي السفاردي الذي تطور لدى اليهود الخارجين من إسبانيا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. أما يهود اليمن فيتابعون مذهبا دينيا يهوديا خاص بهم.
[11]- قورح (قارون) ابن يصهار بن قهات بن لاوي من الشخصيات المذمورة في التوراة بأنها متمردة على الأنبياء. فقد كان في مقدمة المتمردين على موسى وهارون عليهما السلام واتحد معه داثان وأبيرام وأون من سبط رأوبين. وكانت غايتهم تحويل الرئاسة من موسى إلى سبط رأوبين. واتحد معهم 250 من رؤساء الجماعة وتوجهوا إلى موسى وهارون واتهموهما بأنهما مترئسان جورًا على الجماعة. وحسب رواية التوراة فقد فاستشهد موسى الرب فأجابه الرب بأن انشقت الأرض وابتلعت جميع جماعة قورح وداثان وأبيرام وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين الذين معهم.

[12]- هليل: مؤسسة الحياة الجامعية اليهودية، والمعروفة أيضًا باسم هليل الدولية أو ببساطة هليل، هي أكبر منظمة طلابية يهودية في العالم. تُعرّف هليل نفسها بأنها مساحة آمنة للطلاب اليهود، وتُنظم فعاليات تهدف إلى تسهيل التقاليد اليهودية في الجامعات. تأسست عام 1923، ومقرها الرئيسي في الولايات المتحدة، ولها ممثلون في أكثر من 850 مؤسسة تعليم عالٍ ومجتمع جامعي في جميع أنحاء أوراسيا والأمريكتين، بما في ذلك 30 مجتمعًا جامعيًا في الاتحاد السوفيتي السابق، وتسعة مجتمعات جامعية في إسرائيل، وخمسة مجتمعات جامعية في أمريكا الجنوبية.